رواية

حسن بلاسم

قانون سولاند

نادي المكتبة

نادي المكتبة https://t.me/nadimaktaba

٢٧٠٥٢٦٥٠٤١

إلى صديقي الحبيب أحمد النوَّاس

إلى بلدي العراق الذي منحني أغلى ما أملك: الكتابة!

إلى بلدي فنلندا الذي منحني أثمن ما يحتاجه الإنسان: السلام!

جميع الحقوق محفوظة لنادي المكتبة والمؤلف https://t.me/nadimaktaba 📙
ودار منشورات المتوسط

لا تأمَلَنَّ في فرار

إذ ليس لكَ مِنْ سفينةٍ

ولا مِنْ طريقٍ.

وكما خَرَّبْتَ حياتَكَ هنا

في هذه الزاويةِ من العالَم

فهي خرابٌ أنَّى ذهبْتَ

قسطنطين كافافي

جميع الحقوق محفوظة لنادي المكتبة والمؤلف https://t.me/nadimaktaba

كثيرون مَنْ يعرفون اسمي اليوم.

أغلب وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي تحدَّثت عمَّا فعلتُ، لكنها لم تتحدَّث عنِّي. طز بهم، وطز بما يقولونه! أنتم مَنْ يهمُّني الآن. اللاجئون الجدد واللاجئون القدامى، الذين حصلوا على الإقامة، والذين رُفضَت طلبات لجوئهم، الذين مُنحوا الجنسية مثلي، والذين ما زالوا ينتظرون، الذين على الطريق، والذين ما زالوا في بيوتهم يخطِّطون للمجازفة بحيواتهم، من أجل الوصول إلى الجنَّة الموعودة، الذين في سجون الترحيل، والذين يختبئون دون أوراق رسمية.

أكتب من أجل الذين لم يُولَدُوا بعد، لاجئي الحروب والفقر والمناخ المستقبليِّين. من سجني البارد هذا أكتب لكم، ومن أجلكم فقط! أنتم الذين ستبقون غرباء ومنبوذين، أنتم الذين ستطاردكم إلى النَّفَس الأخير لعنةُ هروبكم وتَرْك بيوتكم. أنتم الذين ستتحوَّلون إلى عبيد وفزَّاعات في بيوت مضيفيكم. هذا ليس بياناً من أجل الكراهية والعنف، ولا هو احتفاء بالوحشية. هذه قصَّتي، بوصلة لليائسين! أكتب للذين مزَّقت الكوارث والمظالم طمأنينتهم، وصاروا فئران تجارب في مختبرات مَنْ يعانون بشدَّة، ومنذ قرون، من عقدة التفوُّق! أكتب من أجل تسوية الحساب مع أولئك المقنَّعين في هذه الحفلة التنكُّرية التي تُدعَى «حقوق الإنسان». أكتب كي أدنِّس رايات العنصرية التي ترفرف فوق مُدُن هذا الشَّمَال القاسي، الأناني والمُغتِم.

أخرِجُوني من مركز العلاج النَّفسي، وحَاكِمُوني! أثبِتُوا أنني كنتُ بكامل قواي العقلية حين ارتكبتُ ما يُسمُّونه جريمتي، والتي هي جريمتهم دون أدنى شكٍّ! مضى عام كامل على وجودي في السجن. لا يعتريني أيُّ شعور بالندم. بل إن غضبي تضاعف، وحقدي أصبح راسخاً. إن لم يغتلني السجناء العنصريون، وأُطلق سراحي بعد سنوات، فلن يكون لديَّ سوى قضية واحدة لا غير: تدنيس أسطورة هذا الشَّمَال المتعجرف.

في بلدي الذي وُلدتُ فيه، درستُ الحشرات. كان اهتمامي الكبير مُنصبًّاً على الجراد. لم أدرسها في الجامعة، كان مجرَّد شَغَف رافقَني منذ الطفولة. تابعتُ فضولي وبحثي، بل قلْ هَوَسي الكبير بالجراد عن طريق البحث الشخصي. بعد أن أنهيتُ الإعدادية، درستُ اللغة الفرنسية في معهد اللغات. في العشاء الدموي، والذي أنوي أن أروي حكايته لكم، كنتُ قد ذكَّرتُ الضيوف والمضيفين حينها بالَمثَل الفرنسي القائل (ما دام الباب مغلقاً، سترحل الشياطين). قبل هروبي من بلدي بعام، نشرتُ كتاباً صغيراً عن الجراد. لم يحقِّق نجاحاً يُذكَر، لكن بعض الصحف أشادت بطابعه المرح في تقديم الحقائق العلمية. كان الكتاب سيرة متخيَّلة لحياة جرادة أنثى. تروي الجرادة بضمير المتكلِّم مسيرة حياتها منذ ولادتها حتَّى مقتلها بسموم طائرة المكافحة. ثمَّ اندلعت الحرب الأهلية في البلاد. خُطِفتُ وعُذِّبتُ بسبب تغريداتي الساخرة في تويتر من رجال الدِّين المتعصِّبين، الذين كانوا يُلقون حطب الجهل في فرن الكراهية. بقيتُ

عيناي معصوبتَين لأكثر من أسبوعَين، وتعرَّضتُ للإهانة والضرب والتخويف والتهديد. أطلقوا سراحي أخيراً، فقرَّرتُ الهروب من البلاد التي أشبعتنا عنفاً وإذلالاً. اجتزتُ الحدود عبر الجبال سيراً على الأقدام. ثمَّ عبرتُ البحر بقارب مطَّاطي، وأكملتُ طريقي في شاحنة لحوم. بعد رحلة طويلة كابوسية وصلتُ أخيراً إلى الشَّمَال، والذي فازت إحدى مُدُنه، بعد وصولي بقليل، بلقب أسعد مدينة في العالَم. بعد عامَين فازت مدينة مجاورة باللقب ذاته. وقبل أن أدخل السجن بشهرَين، قُلِّدَت المدينة التي أعيش فيها مرَّة أخرى بميدالية السعادة الذهبية. وهكذا يحصل هؤلاء المتجهِّمون أبداً، في أولمبياد السعادة الشَّمَالية على الميداليات الذهبية دون منافس. هؤلاء السعداء، الأصحَّاء، المرفَّهين، خائفون حَدَّ اللعنة، من أن يمسَّ جنَّتهم المتجمِّدة سحر الغريب وشعوذته!

كنتُ أعمل في مطعم فاخر مختصٍّ بتقديم الأسماك للسيَّاح في وسط العاصمة. كانت حياتي أقلَّ من عادية ورتيبة. غسل الصحون في المطعم، ثمَّ البيت، والذي يعني الغوص في شاشة اللاب توب. أنام متأخِّراً، لكنِّ، أصحو مبكِّراً. منذ أن وصلتُ إلى هنا لاجئاً، خَفَتَ شَغَفِي بعالَم الجراد. زملائي في مهنة اللجوء كانوا يحاولون أن يملؤوا الخواء الذي يشعرون به في غربتهم، بطبخ طعامنا الشعبي، والاستماع إلى موسيقانا المحلِّية الرومانسية. أنا كنتُ أُغرق نفسي بفيديوهات اليوتيوب. لا غرابة أن تجد أغلب اللاجئين، وبعد شهور قليلة في المنفى، قد تحوَّلوا إلى طُهاة مَهَرَة. تُصبح أصناف

البهارات واللحوم والزيوت والخضار أشبه بمخدّرات، تعمل على تهدئة الأعصاب التي يُوتّرها المنفى. ودائماً ما يكون هناك حاجة ناقصة في الطعام، لكي يكتمل المذاق، لأنه من المستحيل أن تجدها في أسواق البلد الجديد. إنها ماركة مسجّلة، ختم في الهوية الجماعية المفقودة. أنا كنتُ آكل في مطعم السمك، وأكتفي للعشاء بساندويش خفيف. كنتُ مرّات أشتهي جرادة! لم آكل واحدة من قبل، لكني الآن على استعداد لالتهام سرب! لقد بقي سرُّ إعجابي الكبير بهذه الحشرات الجميلة والمدمّرة لغزاً بالنسبة إليّ. لم أكن أختلط كثيراً مع بقية اللاجئين. كنتُ وحيداً بما تعنيه الكلمة! وفي حالات نادرة كنتُ أخرج للسهر مع بعض زملاء العمل. حتّى هذه النوادر الاجتماعية في حياتي غالباً ما كانت تسبّب لي الإحراج. خجلي وشعوري الدائم بالملل، كانا يدفعانني للانسحاب من اللقاءات الاجتماعية. أختلق عُذراً، أستأذن وأترك الآخرين لمتعة السهرة! تركبني الوحدة، وأنطلق بها عائداً إلى البيت. كنتُ أفكّر ذات يوم بنفسي وبالوحدة. كنتُ أتساءل، مَنْ منّا الحصان؟ كان سهلاً أن أكون أنا الحصان، والوحدة هي التي تركبني. وفعلاً لقد روّضتني كثيراً، وصرتُ أليفاً مطيعاً، بل حتّى مُحبّاً لها وهي تمسّد شَعْرِي في إسطبل السرير قبل أن أنام، فأغفو مثل طفلٍ خائف ومُتعَب!

كانت لديّ علاقة قصيرة مع فتاة تكبرني بخمس سنوات، تعمل باحثة اجتماعية. هي الآن تعيش مع لاجئ وصل حديثاً إلى الشَّمَال. بعد شهرَين سيكون عُمْري 35

سنة.

مايا، صديقتي السابقة لم تكن تتوقّف عن الحديث عن المهاجرين واللاجئين، خاصّة الرجال منهم. طبعاً كنتُ أتفهّم الأمر، بسبب طبيعة عملها كباحثة اجتماعية، والاحتكاك اليومي المباشر بمشكلاتهم المكرّرة والمتشابهة. كان عليّ، في كثير من المرّات، أن أُصغي بصبر لمنولوج تحليلاتها وآرائها وسخريتها المبطّنة عن ثقافة الهنا والهناك! وإن كان لي رأي يخالف بشدّة ما تقوله، سرعان ما ترفع مايا الصليب وتدقُّ المسامير: عقل شرقي ذكوري آخر بحاجة إلى أن يُنصِت ويتعلّم الحكمة الشَّمَالية في العدالة والمساواة واحترام المرأة. كشفت لي مايا في إحدى ليالي سُكرها الجنونية، أن آخر شريك شَمَالي لها، كان قد كسر يدها في إحدى شجاراتهما. ولم تزد في التفاصيل، ولم ترغب بعدها في ذِكْر الموضوع مرّة أخرى. كانت هوايات مايا هي إقامة علاقات عابرة مع اللاجئين، السُّكْر الشديد والجنوني مرّتَين على الأقلّ في كلّ شهر، الاستغراق في التحليل الساخر لسياسة الشَّمَال ورجال الشرق، وذرف الدموع على حياتها وحياة اللاجئين.

بعد انفصالي عنها بعام، حاولتُ أن أُلبّي غريزتي الجنسية، فجرّبتُ برامج المواعدة. لم تكن تجربة مجدية ولا مريحة. طوال عام كامل من المحاولة، انخفض مستوى ثقتي بنفسي، وتعرّضتُ مرّتَين لإهانة عنصرية مبطّنة. نجحتُ مرّة واحدة في الخروج مع فتاة. ذهبتُ معها إلى شُقّتها. كان هناك شابٌّ ينام في السرير حين

وصلنا. كان شاحباً، وبدا وكأن أحدهم سحب دمه من شراييه بحقنة عملاقة. عرض عليَّ الكيتامين. ثمَّ فهمتُ أن الفتاة تريد أن تنيكني مع الشابّ، انسحبتُ بهدوء، وألغيتُ برنامج المواعدة من هاتفي.

في أيَّام وحدتي تلك، كنتُ ما زلتُ تحت تأثير مرحلة الحورية! تمرُّ دورة حياة حشرات الجراد بثلاث مراحل أساسية: البيضة، الحورية، الحشرة الكاملة. ومثل (جرادتي) مررتُ أنا بالمراحل الثلاثة في محاولة فهم علاقتي بالمكان الجديد وأهله. مضى على وجودي في الشَّمَال حتَّى كتابتي هذه الورقة 11 سنة. حصلتُ على الجنسية بيُسر بعد 4 سنوات من وصولي. كنتُ أعمل طوال الوقت، أدفع الضرائب، تعلَّمتُ اللغة بشكل جيِّد. منذ سنٍّ مبكِّرة كان يؤلمني ما لا أفهمه، خاصَّة العلاقات الإنسانية. الحشرات، النباتات، الحيوانات، الصخور، الكون، المحيطات، يكون غموضها مفهوماً إلى حَدٍّ ما. أشكال الحياة هذه كلُّها تتكلَّم معنا بلغة مختلفة تماماً، وتكون بحاجة إلى جهد وصبر وبحث لسنوات طويلة لفكِّ بعض طلاسمها. لكنْ، أن لا تفهم إنساناً من جنسكَ، ويتكلَّم لغتكَ، هو ما كان يُربِك علاقتي بالآخرين، ويجرح ذهني! يمكنكَ أن تقضي 5 سنوات مع حشرة ما، فتتعلَّم عنها الكثير. لكنْ، يمكنكَ أن تعيش مع إنسان المدَّة نفسها، وتكتشف أنكَ لم تتعلَّم عنه أو منه الكثير. صحيح أن الحورية هي المرحلة الثانية من دورة حياة الجراد، لكنها المرحلة الأولى التي يرى من خلالها الجراد اليافع العالَم الخارجي. خلافاً لجرادتي، أردتُ أن أرى عالَمي

الداخلي أكثر. لم تكن لديَّ دراية كبيرة بعلم النَّفس. قرأتُ في أثناء الجامعة بعض الأساسيات، وشعرتُ بالملل. لكني عدتُ في السنوات الأخيرة لخبايا النَّفس البشرية. لم يكن الأمر سهلاً! فكرة أن تكون شخصاً متوازناً في هذه الحياة، هو عمل شاقٌّ، بحاجة إلى خبرة وتجربة وتدريب. هذا ما كنتُ أقوله لنفسي! ما إن انتهت مرحلة (البيضة) المثالية، حتَّى أخذتُ أقفز هنا وهناك، محاوِلاً لملمة أشلاء ذاتي التي مزَّقها العنف والخوف. بدأتُ بتدريب ذهني على حالتي كغريب واكتشاف بلدٍ جديد. يمكن للجرادة أن تقفز عشرين ضعف طول جسدها. تخيَّل أن تتمكَّن كإنسان من فعل ذلك! الحوريات تشبه الجراد البالغ، بصرف النظر عن حقيقة أنها خالية من الأجنحة، وتفتقر إلى الأعضاء التناسلية. تعتمد في هذه المرحلة على القفز، وتستخدم سيقانها بتكنيك المنجنيق. أنا كنتُ أتنقَّل بين الأفكار والتصوُّرات والأحاسيس، إلى أن قرَّرتُ التركيز والاستغراق في معضلة الضيوف وأهل البيت. حرَّضتني حساسيَّتي المفرطة على ذلك، وربَّما الملل والانزعاج ممَّا يردِّده الجميع في الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي عن اللاجئين، الاندماج، الفوبيا، الكراهية، التعدُّد الثقافي، العنصرية. كانت الصور النمطية السطحية تتناقل وتنتشر مثل فايروس خطير وفتَّاك. كان أهل البيت يشعرون بالتهديد، لكنهم لا يعرفون الكثير عن ماهية هذا الفايروس، والذي كان من اختصاص قلَّة، يتكرَّر ظهورها المُملُّ على شاشات التلفزيون. أمَّا مواقع التواصل الاجتماعي، فكانت أشبه

بغابة مليئة بالببغاوات. الجميع يردّد كلمات الأغنيّة نفسها، ويتمايز كلُّ ببغاء بلون ولحن خاصَّين به. أخذتُ أتابع بجدّية ما يقال عن اللاجئين والشَّمَال. جمعتُ الكثير من الكُتُب التي تتحدَّث عن المنفى، الهوية، العنف، العنصرية، تاريخ الشَّمَال، منها روايات كتبها مهاجرون ومنفيون، وسير ذاتية، وكلّ ما يتعلّق بقصص الغرباء. كان آدم وحوَّاء أوَّل المنفيَّين في رحلتنا البشرية. رغبة أبينا وأُمّنا بتذوُّق شجرة الحياة، كانت كافيةً لطردهما من الفردوس، فصارا لاجئَين مشرَّدَين في هذه الأرض. وهناك رحلات الإنسان الكبرى عبر التاريخ، الهجرة من إفريقيا إلى آسيا وصوب أوربا. هجرات الأوربيِّين إلى أمريكا. اللاجئون والمنفيون بسبب الحروب والاضطهاد السياسي والإبادة الجماعية. المهاجرون بسبب الجوع وتفشّي أوبئة الطاعون والجُدَرِيّ والسَّلّ. يبدو أنه لا يوجد شعب لم يمرّ بمثل هذه التجارب القاسية عبر تاريخه. كنتُ أشعر بحماس وإثارة، ومرَّات بحزن ويأس وغضب وأنا أُبحر في هذا المحيط الشاسع: هجرة الإنسان! تدريجياً أخذتْ تتكشَّف لي بعض جوانب هذه القصَّة التراجيكوميدية الخالدة. وأخذَت الأوراق التي تستر جهلي تتساقط تباعاً، فيزداد خوفي من أن أقف هكذا وحيداً، مكشوفاً وعارياً أمام الكثير من حقائق الإنسان القاسية، والتي لم تتغيَّر كثيراً عبر التاريخ.

واصلتُ عملي في المطعم، لكني وجدتُ أخيراً ما ينتشلني من تبديد وقتي في متابعة مواقع التواصل الاجتماعي ومشاهدة الفيديوهات في اليوتيوب. لقد

اشتعل حماسي القديم مرّة أخرى، حين رحتُ أجمع مادّتي حينها لتأليف كتابي عن الجراد. بدأت أدواتي الداخلية تعمل من جديد: متعة البحث، تنظيم الأفكار، شحذ المخيّلة، ونزع معطف الخوف السميك وقبّعة التردُّد الخشنة، ووضعهما جانباً في خزانة عقلي. فشمس المعرفة أشرقت من جديد، وبدأت لعبة المخيّلة في مجابهة العالَم. لكنّ، هذه المرّة بدل التحليق مع أسراب الجراد، حاولتُ دخول أنفاق الإنسان.

تخضع مرحلة الحورية، بدورها، لخمس مراحل فرعية، تُعرَف باسم الأطوار المرحلية أو الانسلاخ قبل التطوُّر الكامل في الجراد البالغ، وتتميَّز كلُّ مرحلة فرعية أو طور بسقوط بشرة الجِلْد الصلبة والنموّ التدريجي للأجنحة، ومن أجل البقاء على قيد الحياة تبدأ الحوريات بالتغذّي على أوراق الشجر النباتية الطرية والناعمة ليوم واحد بعد الخروج من البيض، وهذه المرحلة تستمر لخمسة أو ستّة أسابيع، قبل أن تنضج الحوريات الصغيرات، وتصبحنَ جراداً بالغاً.

بدأتُ بشكل يومي بكتابة بعض الأفكار والاقتباسات والملاحظات. إيزابيل الليندي تصف اللاجئين والمُرحَّلين والمنفيِّين بأنهم: كتيبة مأساوية! أمَّا شتيفان تسفايغ، فيظنُّ مصيبة المنفى وحدها مَنْ يمكنها أن توفِّر الفهم المتعمِّق والنظرة العامّة إلى حقائق العالَم. وكالفينو كان يرى المكان المثالي هو ذاك الذي يعيش فيه كأجنبي. أحببتُ وصف الرومي حين يقول، عند النوم تعود أحاسيس الناس من الغربة إلى موطنها.

لم أكن أنا نائماً، بل كنتُ أحلم عن طريقة المعرفة من جديد، وشعرتُ حينها أن العالَم بزُمَّته صار بيتي، وأن الكائنات كلَّها شركائي. أيّ حورية مسكينة، كنتُ؟

نعم، صحيح! أنا الذي أكملتُ بنفسي تنظيف البيت بعد العشاء. غسلتُ الأطباق، ومسحتُ الدم، وكنستُ الأرضية، ورتَّبتُ غرفة نومها حتَّى إنني غسلتُ الحمَّام. وضعتُ جثث الضيوف والمضيفين في الصالة. طلبتُ منها أن تُنهيَ طعامها، وتحكي لي عن حياتها. ثمَّ أخذتُها إلى الساونا عارية، وأغلقتُ الباب!

أنا الأن جرادة كاملة، يمكنها الطيران بحرِّيَّة وعزم! لا أوهام، ولا قفزات خائفة متردِّدة بين أدغال الحياة. إن كان السلام طريقة سلحفاتية للاقتراب من بعض حقائق الحياة، فإن العنف هو طوفان ساحق، يجرف معه المسلَّمات والمخاوف والأوهام والمظاهر الزائفة كلَّها، ولا يتبقَّى بعده سوى هياكل الحقيقة العارية. هل العنف هو المورد الذهبي لهذه الأرض؟!

لا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إلَّا مَنْ تملك مخيِّلاتهم أجنحة.

بدأت الحكاية التي يودُّ كثيرون اليوم معرفتها منِّي شخصياً، في صباح يوم سبت خريفي. وعليه أن يكون كذلك، لأن لا وقت يضاهي جمال الخريف في الشَّمَال. كنتُ أشعر بالإثارة بمجرَّد اقتراب هذا الفصل، الذي يحرِّك في داخلي شعوراً لذيذاً غامضاً. مزيجاً من الحزن الجميل والفرح المتأمِّل. تناولتُ فطوري، وذهبتُ بنزهة

على درّاجتي الهوائية عبر الغابة القريبة من شُقّتي. كنتُ أستمع إلى فيلب كلاس، أضفَت الموسيقى نكهة سينمائية حالمة على سجّادة أوراق الأشجار، البرتقالية والصفراء والحمراء. تماهيتُ مع الألوان والموسيقى، ورحتُ أتنفّس بعمق، محاوِلاً استنشاق أكبر كمّية من الجمال، وجعله يمسُّ كلَّ خلية من جسدي، إلى أن رنَّ هاتفي، وأفسدَ تمارين التنفُّس! كان رامان زميلي في المطعم . وهو لاجئ حديث نسبياً. حصل على الإقامة الدائمة، ومتزوّج من امرأة شَمَالية، تعمل في بار قريب من سكنهم. كان متوتّراً، وطلب لقائي لتبادل الحديث والمشورة. أخبرتُهُ أنني سآتي على درّاجتي الهوائية للقائه في مركز المدينة: (أصل إليكَ بعد 20 دقيقة تقريباً). يعجبني رامان، فهو يعرف كيف يقتبس همومنا كلاجئين، ويحوّلها إلَى مشاهد مسرحية ساخرة. فهو جندي رومانسي في معركة الحياة، كما كان يصف نفسه. استغرقتُ في تأمُّلاتي وأنا في الطريق إليه. كنتُ أفكّر بالفوارق والحدود الوهمية بين الأمكنة والبشر والأزمان. وكان المشهد الناري للأشجار، يدفعني للتفكير بالأشياء الرائعة والجميلة، والتي لا تحتاج سوى القليل من السلام الداخلي، لتضمَّكَ بين ذراعَيها. في الحاضر، وغالباً ما يمكنكَ أن تشعر بقيمة الأشياء من حولكَ. أمَّا الماضي، فلا يجلب سوى الهمّ! كنتُ أفكّر بطبيعة الناس هنا في الشَّمَال، وبقانون يانته! ترى أيّ قانون نحتاجه في بلادنا للخروج من دوّامة العنف والضياع؟! عُدَّ قانون يانته لفترة طويلة بأنه أحد أسرار سعادة بلدان الشَّمَال، والتي

غالباً ما يحسدهم عليها الآخرون. صاغ القانون الكاتب إكسيل ساندومس في روايته (لاجئ يشرع بطريقه)، والتي كتبها عام 1933. الكتاب كان يحتوي على انتقاد لجملة من المظاهر الاجتماعية السائدة حينها. والوصايا التي ذكرها في كتابه أصبحت لاحقاً بعد سنوات أشبه بالقانون الاجتماعي. حتّى الذين لا يعرفونه ولم يقرؤوه صاروا يتبعون منهجه الذي تحوَّل إلى سلوك شَمَالي شبه جمعي إلى حَدٍّ كبير. وكانت وصاياه العشرة كالآتي:

1. إيَّاكَ وأن تعتقد بأنكَ شخص مميَّز.

2. إيَّاكَ وأن تعتقد بأنكَ أطيب منَّا.

3. لا تعتقد بأنكَ أفطن منَّا.

4. لا تتخيَّل بأنكَ أحسن وأفضل منَّا.

5. لا تفكِّر بأنكَ تعرف أكثر منَّا.

6. لا تعتقد بأنكَ أكثر أهمِّيَّة منَّا.

7. لا تعتقد بأنكَ تصلح لفعل شيء ما.

8. سوف لن تضحك علينا.

9. لا تعتقد بأن أحداً يكترث لكَ.

10. لا تعتقد بأننا سوف نتعلَّم شيئاً منكَ.

عندما اطَّلعتُ على وصايا يانته أوَّل مرَّة، كانت قد ساعدتني كثيراً لتسليط الضوء على سحر ميزات التواضع والهدوء والبساطة التي يتحلَّى بها أهل الشَّمَال. فهم غير متكلِّفين، ولا يبالغون في تصرُّفاتهم وعواطفهم.

ولا يتفاخرون بما يملكون، وبما هم عليه. كان قانون يانته يركّز على التضامن الجماعي، ويقلّل من شأن الفرد. ببساطة أنتَ ليس أفضل وأذكى من الآخرين! عليكَ أن تشعر أن الناس المحيطين بك جميعهم، ومهما اختلفت أعمالهم التي يقومون بها عن عملكَ، تحمل قيمة، وتُكمل بعضها. فهمتُ أنه حتّى سنوات السبعينيات كانت مفاهيم (يانته) شائعة وحاضرة في الحياة العامّة بقوّة. لكن أغلب الشبّان اليوم لا يتوانون من السخرية من وصايا يانته التي تُعدُّ، بالنسبة إليهم، حاجزاً يقف في وجه الإبداع الفردي، وتقلّل من أهمّيّة الثقة بالنّفس، وتُنهي روح المنافسة والقدرة على التفوُّق. حتّى إن بعض الشبّان في الشَّمَال حفروا قبراً رمزياً لقانون يانته، دفنوه، ووضعوا له شاهدة قبر. إنها روح الرأسمالية، على طريقة الحُلم الأمريكي (أنا أوّلاً!) الشعار الذي يداعب أذهان الكثير من الناس في أرجاء العالَم كلّها. كنتُ أشعر بخيبة ومرارة، من حقيقة اكتساح قِيَم الرأسمالية تواضُع الشَّمَال وصبره وعدم مفاخرته بالأشياء التافهة! لم يكن هدوء وقلّة كلام الناس هنا في الشَّمَال يعني لي بأنهم غير اجتماعيّين وكئيبين، بل إن الصمت هو من أرقى أشكال الذكاء والتعبير. وتواضع الناس وبساطتهم يخفّف من وطأة العيش اليومي المستعر. وأن تضع مسافة بينكَ وبين الآخرين، لا يعني أنه سلوك انعزالي فجٌّ، بل هو شكل راقٍ من أشكال الأناقة الإنسانية.

ببساطة كنتُ مثل كثيرين، منتشياً بأسطورة الشَّمَال السعيد، بتواضعه ومساواته وعدالته. لكنّ، خلف قناع

السعادة والتواضع هذا، كان هناك الكثير من المسكوت عليه! هؤلاء السعداء المتمدّنون، والذين توارثوا أقنعة التواضع اللوثرية عن أجدادهم الكئيبين، هؤلاء الذين يحملون في لا وعيهم بخل الفلّاحين، هم أقسى بكثير ممّا تشي به صورهم الخارجية التي يودُّون أن يحافظوا عليها، مهما كان ثمن طمس حقيقة أخطبوط الفوبيات الذي يمسك بوعيهم الباطني. هؤلاء الذين سُوِّرت أرواحهم بالمناخ القاسي والموقع الجغرافي، حتّى سياستهم البراغماتية كانت عبر التاريخ قاسية ومحيِّرة. يتقدَّم النازيون، فيتحالفون معهم، يخسرون، فيتحالفون مع أعدائهم. سعداء الشَّمَال هؤلاء يطبِّقون اليوم قانونهم الخاصَّ تجاه الغرباء، خاصَّة ضدَّ المهاجرين واللاجئين. إنها وصايا الشَّمَال التي لن يمكنكَ تجاوزها عزيزي اللاجئ، ولا المساس بها:

• إيَّاكَ أن تظنَّ أنَّكَ ستصبح واحداً منَّا.

• لا تعتقد أننا سنشعر يوماً بالأمان تجاهكَ.

• لا تفكِّر أنكَ لو تحدَّثتَ لغتنا، وأحببتَ قِيَمنا ستكون ضيافتكَ من دون شروط.

• لا تتوهَّم أنكَ ستضيف لثقافتنا النقية أيَّ جديد.

• لا ترتكب أيَّ خطأ، فعقابكَ سيكون مضاعفاً.

• سوف لن تتفوَّق أبداً على عِرقنا الشَّمَالي الأبيض.

• سوف لن تحتال علينا بثقافتكَ الشيطانية.

• ستبقى أضعف منَّا مهما فعلتَ.

• لن نغفر لكَ أبداً اقتحامكَ حدود بلادنا.

• لا تعتقد أننا نكترث حقّاً لماضيكَ أو حاضركَ أو مستقبلكَ

كان رامان يجلس في زاوية شبه مظلمة في البار. قال إنه سيطلب لي البيرة! ذكّرتُهُ بأنني، ما زلتُ أناضل من أجل التقليل من شرب الكحول. جلبتُ شاياً لنفسي، وسألتُهُ عن المشكلة، قال: إنها السرعة اللعينة! ابتسمتُ: السرعة؟ عن ماذا تتكلّم، أيّ سرعة؟ آه، فهمتُ .. أكيد قدتَ سيّارتكَ مسرعاً، وأمسكت الشرطة بكَ وستشتكي، لأنكَ قرأتَ التقرير الذي نُشر قبل فترة .. أنا أحفظه عن ظهر قلب، تقول الإحصاءات إن المهاجرين تعرَّضوا إلى عقوبات أشدّ من المواطنين الشَّمَاليِّيْن عند ارتكاب جريمة القيادة تحت تَأثير الكحول. فنحو أكثر من 50% من الأشخاص الذي كانوا مهاجرين أجانب ذهبوا إلى السجن ممَّن ارتكبوا جرم القيادة تحت تأثير الكحول، أمَّا المواطنون الشَّمَاليُّون، فلم يُحوَّل إلى السجن منهم سوى 30% ممَّن ارتكبوا الجرم نفسه، ووُجِدَتْ لديهم معدَّلات الكحول ذاتها في دماءهم. دعكَ من هذا الهراء، أظنُّ أن كلَيْنا يفهم هذه الحقيقة المزعجة، لكنها ليست نهاية العالَم!

قال رامان وهو ينظر لي بجدّية: خلصت؟! ابتسمتُ له بغباء: نعم .. أوكي، آسف .. أخبرني أنتَ!

ـ ليست السيّارة ولا الكحول الخرائي، إنها زوجتي وسرعتي في المشي! قال، وأجهز على ما تبقّى من

البيرة في القدح. ثمَّ أضاف: اسمعْ! أنتَ تعرف أننا نعيش في مركز المدينة، وغالباً ما نستخدم السيَّارة في قضاء حاجاتنا اليومية أو الذهاب إلى أيِّ مكان .. أوكي .. ببساطة أنا أمشي بسرعة الأرنب، وزوجتي بطيئة كسلحفاة. طبعاً حاولتُ أن أُبطِّئ من سرعتي في المشي، لكنها تبقى كسلحفاة عجوز. لا أفهم .. لمَ عليَّ أنا فقط أن أبذل جهداً للإبطاء من سرعتي، لمَ لا تزيد هي ولو قليلاً من سرعة مشيها؟! أعرف ما ستقوله، لأنكَ لا ترى أني أمشي، بل أركض، وأنتَ أيضاً تذمَّرتَ سابقاً من الموضوع، وآخرون .. لكني لا أنيكَ أنتَ، ولا أتقاسم الفواتير معكَ، ولا تشاركني روتين الحياة اللعين، سوى في غسل صحون السمك اللعين، والذي تلتهمه حيتان السياحة الملعونة، في المطعم اللعين!!

أضحكني رامان وهو يوزِّع لعناته على الجميع! أخبرتُهُ أنه يبالغ، وهي مشكلة بسيطة بالإمكان حلّها. لم يقتنع، وقال بأنني لا أفهم حقيقة المسألة، وعليَّ أن أفكر بجدِّية معه. يقول رامان، إن مشكلة السرعة تقود للشجار على مواضيع أخرى. فزوجته تظنُّ أنه يقوم بكلِّ شيء بسرعة غير عادية. يأكل بسرعة، يقذف بسرعة، ينام بسرعة، يغادر البيت بسرعة، يتكلَّم بسرعة، يكره ويحبُّ بسرعة: هل تظنُّ أنني سريع إلى هذا الحَدِّ؟! حدَّقتُ في عينَيْه مباشرة: رامان، لا تزعل منِّي! أنتَ تغسل الصحون في المطعم بسرعة، وتُحرجني، في كثير من الأحيان، مع صاحب المطعم، فهو يقدِّرك أكثر منِّي، ويفكِّر أنني كسول.

(هُرَاء!) قال وذهب مسرعاً إلى البار، وعاد مسرعاً وهو يحمل البيرة والويسكي. حاولتُ التهوين من أمر المشكلة، وذكَّرتُهُ بأن مارتا زوجته إنسانة لطيفة، وقد ساعدتْهُ كثيراً في بداية حياته كلاجئ. وافقني هو خاصَّة في مسألة كرمها غير المحدود في مساعدته، واسترسل في وصف أيَّامه الأولى كلاجئ، وكيف كانت مارتا تقوم بدور الأُمّ والأُخت والصديقة والحبيبة والزوجة. ثمَّ قال والدموع تتلألأ في عينَيه: (مارتا هي هدية من السماء في هذا المنفى اللعين!) أخبرتُهُ أنني سأكسر الحظر على شُرب الكحول، وأحتسي معه كأساً من النبيذ. ثمَّ صرن ثلاثة كؤوس حين أخذَنا الحديث إلى موجة اللاجئين الأخيرة التي وصلت إلى الشَّمَال. كان رامان منزعجاً من سلوك بعض اللاجئين، حيث قام شابَّان باغتصاب فتاةَ قاصر، وقال إن هذا سيُضاعف من تشويه صورتنا، الملطَّخة أصلاً بوحل التاريخ والأقدار والسياسة. ثمَّ تحدَّث عن صعوبة حياة اللاجئين في المُدُن الصغيرة. خاصَّة في تلك المدينة القَصيَّة التي وقعت فيها حادثة الاغتصاب. اللاجئون مُحاصَرون بالشتاء القاسي، وبغضب الأهالي خاصَّة من النازيِّيْن والعنصريِّيْن. وأخبرني رامان، أن المدينة تعاني من نقص حادٍّ في المترجمين، لفهم لغة أهل مخيَّم اللجوء.

ما اسم المدينة؟

سولولاند.

مشى رامان معي حتَّى مدخل نفق الميترو. بعد كؤوس

النبيذ الثلاثة لم تكن لديّ الطاقة الكافية للعودة إلى البيت بدرّاجتي الهوائية. ودّعني رامان، وانطلق مسرعاً في طريقه! صحتُ خلفه ساخراً: لا تُسرِع، يا بابا، فنحن بانتظارك! رفع لي أصبع السبّابة من دون أن يلتفت إليّ. رامان إنسان بسيط وخلوق ورائع، وطيبته تكاد لا تُوصَف، رغم أن فيه شيئاً من سذاجة الأطفال. الوحيد الذي زارني لاحقاً في السجن هو رامان. وكان مُحطَّماً، بعد أن تفاقمت مشاكله مع مارتا، وانفصلا.

في المساء، بحثتُ في الأنترنت عن اللاجئين في مدينة سولولاند وأخبار حادثة الاغتصاب. كان هناك تقرير تلفزيوني، عثرتُ عليه في اليوتيوب. تحدَّث فيه كالعادة أكاديميون ومختصُّون وعلماء نَفس واجتماع، أغلبهم لم يزورا في حيواتهم بلدان اللجوء، ولا يتكلَّمون لغات سكان المخيَّم. وكانت هناك أيضاً لقاءات مع أهالي المدينة واللاجئين. كان أغلب اللاجئين الجدد ما زالوا في مرحلة (البيضة) الرومانسية، حيث الحماس الزائد والمبالغة على صعيد الأحاسيس والأفكار فيما يخصُّ البيت الجديد الذي لجؤوا اليه. كان سكّان المخيَّم منقسمين على أنفسهم. بعضهم يلوم اللاجئين أنفسهم بتصرُّفاتهم السيِّئة المخجلة، وآخرون غاضبون من سوء معاملة الأهالي والنظام، ولا عدالة أن يُنظَر إليهم جميعاً كمغتصبين ومجرمين محتملين. (لماذا نُحاكَم جميعاً بسبب جريمة شخصَين مريضَين؟) قال لاجئ شابٌّ في مقتبل العُمُر، اسمه سامي، ثمَّ أضاف: (كلُّ ما أريده هو أن أطوِّر مهارتي في تصميم ألعاب الفيديو، وأبدأ حياة

جديدة هنا، وأساعد الآخرين.) لاحقاً، سيصبح سامي هذا، أشدّ ذنوبي قسوة، والتي لن أتطهَّر منها مهما فعلتُ. لولا رعونتي وحماقتي، لَمَا جاء إلى عشاء الاندماج، ولَمَا انتهى برصاصتَيْن، اخترقتا صدره.

بعد أسبوع من التفكير وتقدير أمور حياتي، قرَّرتُ الذهاب إلى مخيَّم اللجوء في مدينة سولولاند. كان هناك أكثر من سبب يدفعني لذلك. تعاطفي مع اللاجئين وأهالي المدينة المذعورين. مللي من روتين العمل في مطعم السمك طوال 8 سنوات من دون إجازة حقيقية. أمَّا الدافع الأهمُّ، كانت أوهامي التي شكَّلتُها في مرحلة الحورية، مثل البحث عن العلاقات بين الضيوف والمضيفين عبر التاريخ ومأساة المنفى! قلتُ لنفسي: بخبرتي التي اكتسبتُها من التجربة والقراءة، يمكنني أن أساهم في الترجمة ومَدِّ الجسور بين اللاجئين والأهالي. ثمَّ إنني لا أعرف كثيراً عن قصص اللاجئين الجدد، وسيساعدني الغوص في حيواتهم وعلاقاتهم بالمكان الجديد، في تطوير فكرة الكتاب التي بدأت تتشكَّل أخيراً في ذهني. وضعتُ عنواناً أوَّلياً للكتاب كحجر أساس: (الحُبُّ الصعب). كنتُ أنوي أن أتحدَّث فيه عن العلاقة الإنسانية المعقَّدة والشائكة بين اللاجئين وبيوتهم الجديدة، ومقارنة ذلك بعلاقة الإنسان بكلِّ ما حوله. الأحبَّاء والطبيعة والزمن والموت. لم أكن أُدرك أنني ما زلتُ حورية، تنطنط هنا وهناك، ولستُ جرادة بالغة! أضف إلى ذلك كلَّه ظروفي المادِّية التي كانت تساعدني لفكرة التخلِّي عن العمل، والإقدام على

المغامرة مع اللاجئين في سولولاند. كان لديَّ في البنك مبلغ لا بأس به. ولم تكن لديَّ مصاريف كثيرة. وكنتُ قد توقَّفتُ عن الإفراط في شرب الكحول منذ عام. خاصَّة بعد أن صار الكحول يتسبَّب لي بنوبات كآبة حادَّة. رحتُ أشرب في المناسبات قليلاً من النبيذ الأحمر لا غير. لم أكن مُولَعاً بشراء أيِّ شيء جديد. أشتري ملابسي من محلَّات بيع الملابس القديمة كلّ سنتَين أو ثلاث سنوات، ماعدا الجوارب والألبسة الداخلية أشتريها جديدة. ليس لديَّ الكثير من الأصدقاء لتبذير النقود برفقتهم. أغلب وجباتي الرئيسة كانت في مطعم السمك. ولم أكن أسافر خارج العاصمة. آخر مرَّة سافرتُ فيها كانت زيارة سريعة لصديق قديم في بلد شَمَالي مجاوِر، وكانت الرحلة رخيصة على متن الباخرة. كان مصروفي الوحيد يذهب على سجائر اللفِّ، والتي أدخِّنها باعتدال، ومن دون إسراف. أخبرتُ صاحب المطعم، برغبتي في ترك العمل. فوافق في الحال من دون تردُّد، وأثار ذلك دهشتي، ربَّما لم أكن أُعجبه إطلاقاً! ودَّعتُ صديقي رامان، والذي لم يتَّفق معي على ترك العمل، واقترح أن أقوم بتقديم المساعدة في مخيَّم اللجوء في العاصمة بدل الذهاب إلى أقصى الشَّمَال. أخبرتُهُ أن اللاجئين في العاصمة، حيث تعيش جنسيات وثقافات متنوِّعة، أفضل حالاً بكثير من مدينة صغيرة، ما زالت عذراء، وقد اقتحمها الغرباء! كانت هناك مشكلتان تتعلَّقان بالسكن قبل قرار الرحيل. كنتُ متيقِّناً من صعوبة الحصول على سكن في مدينة صغيرة، تعدُّ نفسها قد اغتُصبت

للتوّ من قبَل البرابرة. واسمي، بكلّ تأكيد، كان يشير إلى بربريَّتي! مع ذلك حاولتُ، وتقدَّمتُ بطلب الحصول على سكن عبر الأنترنت من إحدى الشركات المختصَّة. لكنني كنتُ متأكّداً من أن انتظاري سوف يطول! أمّا المشكلة الأخرى، تتعلّق بشُقَّتي في العاصمة، فلن يكون من السهل الحصول على سكن في العاصمة من جديد. قدَّم رامان صديقي يد العون. وكان اقتراحه، أن أؤجّر البيت لثلاثة لاجئين جدد، يعرفهم شخصياً، على شرط أن يُخلوا البيت قبل شهر من رجوعي! يعطوني قسماً من إيجار الشُّقَّة، وهكذا أقدِّم مساعدة أخرى للاجئين، وأحتفظ بالشُّقَّة حتَّى عودتي.

جميع الحقوق محفوظة لنادي المكتبة والمؤلف https://t.me/nadimaktaba

ما إن وصلتُ بسيّارتي إلى مدينة سولولاند في أقصى الشَّمَال حتَّى هبَّت عاصفة ثلجية قوية. توجَّهتُ إلى فندق لوكي وسط المدينة. كانت صالة الاستقبال فارغة. انتظرتُ عشر دقائق قبل أن يظهر موظَّف الاستقبال. يبدو أن الرجل استغرب وجودي، وأنا دُهشتُ من طوله غير الطبيعي. قال: نعم؟ أخبرتُهُ أنني حجزتُ غرفة عبر الأنترنت، وقدَّمتُ له جواز سفري. أخذه وبدأ يتفحَّصه، وكأنه شرطي جوازات في مطار. نظر إلى شاشة الكمبيوتر متسائلاً: من أيِّ بلد أنتَ؟ قلتُ: من هنا، أنا شَمَالي! ابتسم قائلاً: (نعم، نعم! أرى ذلك، لديكَ جواز سفر شَمَالياً، لكنْ، أقصد بلدكَ الأصلي. رمقتُهُ بنظرة غاضبة، كي لا أقول له: وات فاك!. تابع قائلاً: أوكي، مكتوب في الجواز مكان ولادتكَ .. أوكي .. حجزتَ مدَّة شهر .. نعم .. أوكي .. لسنا معتادين على حجز طويل في مدينتنا الصغيرة، هل وجدتَ عملاً هنا؟! قلتُ ساخراً: لا، أنا سائح!. أعطاني المفتاح: غرفتكَ رقم 23، الفطور من الساعة 6 حتَّى 11، الواي فاي من دون رَقْم سرِّي. سألتُهُ إذا كان هناك مطعم في الفندق. أجاب وهو يواصل الطباعة في الكمبيوتر: يوجد مطعم صغير في الجوار، نحن لا نقدِّم في البار سوى الكحول. المطعم بعد محطَّة البنزين، اسمه سول، لكنه لا يقدِّم سوى الأكلات المحلِّية. ثمَّ خمَّن الرجل الطويل، بأن الطعام لن يعجبني هناك، ومن الأفضل الذهاب إلى مركز المدينة.

أخذتُ حمَّاماً دافئاً، ورتَّبتُ ملابسي في الدولاب. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر. جلستُ على

حافّة السرير متأمّلاً العاصفة من النافذة وهي تجلد ظهر بناية عالية كئيبة، تحجب رؤية المدينة. ربّما هي دائرة حكومية أو شركة. غيّرتُ ملابسي، وذهبتُ إلى مطعم سول. استقبلتني امرأة خمسينية بابتسامة أمومية. لم يكن هناك في المطعم سوى رجل مسنٍّ يحتسي القهوة. تفحّصتُ قائمة الطعام: حساء سمك السلمون، كرات اللحم مع البطاطا المهروسة، وطبق لم أتناوله من قبل، وهو شرائح لحم الرنّة، اخترتُهُ مع قدح ماء.

ـ اختيار جيّد! قالت المرأة، وذهبت إلى المطبخ. جلستُ إلى الطاولة، ورحتُ أتأمّل الرجل المسنّ الذي راح يبتسم للعاصفة في الخارج، وكأنها لوحة تحرّك الذكريات الجميلة في داخله. جلبت الطاهية الطبق بنفسها، وخُيّل لي للحظة أنها المرأة صاحبة الابتسامة الأمومية. كانتا تتشابهان بصورة كبيرة، ربّما كانتا أُختَين! لكن الطاهية لم تكن تملك الابتسامة الأمومية ذاتها، كانت ابتسامتها ساذجة، كَمَنْ يبتسم من نكتة لم يفهمها. شرحت لي الطبق: (شرائح لحم الرنّة مقلية بالزيت، ومُتبّلة بالملح والفلفل، وهي مطبوخة بالبيرة حتّى يُصبح اللحم طرياً، وهناك التوت البرّي مع السكّر والخيار المخلّل. ثمّ أضافت: أرجو أن لا تمانع من طبخ اللحم بالبيرة؟!. قلتُ: لا تقلقي، فهمتُ قصدكِ! ليس لي إله يرشدني ما الذي يحقُّ لي شربه أو أكله .. أنا ملحد بالغريزة! أشادت الطاهية بلُكنتي في التحدُّث بلغة أهل الشَّمَال، وقالت بأنني أوّل لاجئ يأتي إلى المطعم. أردتُ أن أشرح لها أنني لم أعد لاجئاً، وأنني مواطن، لكنها تابعت كلامها:

اللاجئون يفضّلون، بالطبع، مطعم الكباب وسط المدينة. عندهم حقًّا! مذاق الطعام له علاقة بالذاكرة والأمّ.

تمنّيتُ أن تواصل حديثها عن الأمّ، لكنها عادت إلى مطبخها، بينما راحت المرأة الأخرى تصغي لإذاعة محلّية تتحدّث عن العاصفة الثلجية التي ستمسك بالمدينة لليومَين التاليَين.

عدتُ إلى غرفتي في الفندق. خلعتُ ملابسي، واستلقيتُ عارياً في السرير وأنا أستمع من اللاب توب إلى نشرة الأخبار المفصّلة من التلفزيون الرسمي في بلدي الذي ما زال ينزف منذ أكثر من خمسة عقود. كان هناك محلّل ينتمي لحزب إسلامي في السلطة، يكرّر البروبوغاندا القديمة نفسها: المستقبل المشرق للبلاد، والصعوبات الإقليمية، وتدخُّل دول الجوار، وإنكار عنصرية رجال الدِّين، وبأن اسم الله بريء من بعض المخرِّبين والإرهابيِّين. كنتُ أشعر بالتعب، وبشيء من القلق من مغامرتي للقدوم إلى مدينة سولولاند. هل تسرَّعتُ بالأمر، ودفعتني كآبتي والشعور بالوحدة للقدوم إلى هنا؟! ممارسة العادة السرِّية بعد تعب قيادة السيَّارة طوال 12 ساعة ربَّما ستساعدني على أخذ قيلولة. لا أدري لمَ تحرّك الإقامة في فندق الشبق في داخلي! ربَّما هي المشاهد المكرَّرة العالقة في مخيِّلتي من بعض الأفلام. امرأة جميلة تسترخي في البانيو مع كأس شمبانيا، ثمَّ يدخل البطل عارياً، وينزلق بين فخذَي البطلة. بحثتُ في غوغل عن مواقع تقدّم الجنس بلغتي الأمّ. كانت قليلة، لكنها متوفِّرة! كانت المشاهد الجنسية

بلغتي الأمّ، تتسبّب لي بإثارة أكبر، والقذف سريعاً، والخلاص من مواقع الجنس المسمومة والتافهة. مرّات كنتُ أفكّر، بالحصول على زوجة من البلاد. لكن تجارب الآخرين التي أعرفها، كان أغلبها مخفقاً. أن يختار لكَ أهلكَ ومعارفكَ امرأة، ويرسلوها لكَ مثل بضاعة هو أشبه بلعبة يانصيب. قد تخسر أو تربح حبّاً، لم يكن في الحُسبَان. طبعاً احتمالات الخسارة أكبر بكثير. أمّا إقامة علاقة عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي، فهي أسوأ من اختيارات الأهل، تحتاج إلى محقّق خبير واختصاصي في علم النّفس للتميز بين المحتالين الذين ينوون فقط الخلاص من جحيم العنف، ويعتبرونكَ مجرّد طوْق نجاة، وبين مَنْ تشتعل فيهم رغبة حقيقة لتجربة مغامرة الحُبّ بعيداً عن البيت.

كانت الساعة السابعة مساءً حين صحوتُ. ارتديتُ ملابسي، ونزلتُ لتدخين سيجارة. كان موظّف الاستعلامات يدخّن هو الآخر في باب الفندق. سألَ إن ما كان طعام سول قد أعجبَني، وأضاف أن صاحبة المطعم هي من أقربائه. أخبرتُهُ أن حساء السمك كان جيّداً، رغم أني أكلتُ لحم الرنّة. كنتُ أُعدُّ في ذهني خطّة لتخريب بديهياته، بعد أن افترضتُ مُسبَقاً ما الذي يجول في ذهنه، خاصّة من إصراره على معرفة مذاق الطعام المحلّي. بعد هذه السنوات كلّها في الشّمَال، صارت لي خبرة لا بأس بها، تحديداً في الرجال، أصحاب العقول الصغيرة. ما هي الفكرة الساذجة، يا ترى، التي تدور في ذهنه؟ (أنتَ غريب، ولن يمكنكَ أبداً الاستمتاع بطعامنا

ونكاتنا وموسيقانا وتراثنا ..أنتَ فقط تستمتع بفروج النساء هنا، لأنهنَّ سهلات جدًّا!!. أردتُ تخريب بديهياته، بل حتَّى إذلالها. فحدَّثتُهُ عن أفضل الطُرُق لإعداد حساء السمك، وحدَّثتُهُ عن أصناف الأسماك المحلِّية كلِّها في بلدان الشَّمَال عامَّة، والبحيرات التي يأتي منها، وطُرُق طبخ السمك الصحيحة. طبعاً لم أُخبره أنني خبير بسبب عملي في مطعم السمك. وأضفتُ كذبة أخرى لتعذيب مخيِّلته بالمزيد من الصور النمطية، حين قلتُ له إن صديقتي الشَّمَالية تحبُّ كثيراً طريقة تحضيري للسمك، وتقول إنني أُحوِّل السمكة إلى عمل فنِّيٍّ شبق! شعر الرجل بالمبالغة في كلامي. في الحقيقة كانت صديقتي السابقة مايا تحبُّ كثيراً الطبخ الشرقي، حتَّى إننا تشاجرنا أكثر من مرَّة، لأنها توقَّفت عن إعداد الطعام، بحجَّة أن أكلاتي الشرقية لذيذة جدًّا، وبأن المطبخ الشَّمَالي لا يتحلَّى بالمذاق الحادِّ والشرس الذي تتمتَّع بها أكلات الشرق المُتبَّلة. ثمَّ راحت مايا بعد فترة تقدِّم لي النصائح حول ما أطبخه، وتنتقد كثرة الزيوت في الطعام. وكان جوابي: الشرق شهي بسبب كثرة زيوته، لمَ لا تطبخين لنا أكلة شَمَالية صحِّية باردة!. ثمَّ جاء دور موظَّف الاستعلامات الطويل في تخريب قائمة افتراضاتي عن طبيعة شخصيَّته. قال إن أُخته متزوِّجة من مهندس مهاجر. وتحدَّث أيضاً عن طبخ المهندس وبراعته. وراح يسترسل بالحديث عن صفات زوج أُخته، كرمه وطيبته وتواضعه. أكمل دراسة الهندسة

مع شركة كبيرة للاتّصالات، ويحقّق أرباحاً جيّدة. قال موظّف الاستعلامات، إنه لم يرَ في حياته رجلاً صادقاً ومتواضعاً مثل المهندس. عيبه الوحيد رفضه دخول الساونا عارياً مع الأهل أو الأصدقاء. بل إن المهندس يرفض دخول الساونا حتّى مع زوجته. (أنتم الشرقيون تبالغون كثيراً في موضوع العُري والجسد)، قالها الرجل الطويل دون عدائية. أطفأ سيجارته : (أهلاً بكَ في سولولاند! احذر قليلاً هذه الأيّام، خاصّة من المتعصّبين الأغبياء، أكيد أنكَ سمعتَ عن حادثة الاغتصاب وغضب الأهالي).

قضيتُ ليلتي الأولى للاستماع إلى الموسيقى والبحث في الأنترنت. كنتُ أحاول في الآونة الأخيرة فَهْم موسيقى الهافي ميتل الشَّمَالية. كانت إيقاعاتها الصاخبة وصراخ مغنّيها قاسياً وصعباً، بالنسبة إلى طبلة أُذني، رغم أنني كبرتُ في بلد حروبه الصاخبة رافقتني منذ سنوات طفولتي. قُتل أبي في الحرب مع جيراننا، ونحن ما زلنا أطفالاً. صرنا يتامى أنا وأخوتي. تكفّل أعمامي برعايتنا، ورفضوا أن تعمل أُمّي من أجل إعالتنا. خصّصوا لنا راتباً شهرياً بسيطاً، وحوّلوا حيواتنا إلى جحيم بتدخُّلاتهم في حيواتنا الشخصية بتفاصيلها كلّها. أخي الكبير أخذ يعمل في السوق، وترك دراسته وهو في سنّ الخامسة عشرة. ولم يكن ما يحصل عليه كافياً للعائلة. كان يكبرني بسنتَين، وأُختي تصغرني بسنة. وحين دخلت الجامعة، كنّا قد تحرّرنا أخيراً من ذلّ الإعانة الاجتماعية من قبَل الأعمام. افتتح أخي دكّاناً خاصّاً به

لبيع الموادّ الغذائية، ووجدتُ أنا عملاً في معمل آيس كريم، كنتُ أذهب إليه بعد ساعات الدراسة. أختي أكملت دراستها في كلّيّة الإدارة والاقتصاد، وبعد تخرُّجها، تزوَّجت، ولازمت البيت، وأنجبت أربعة أطفال خلال خمس سنوات. مرَّت حياتي في البلاد، مثل كثيرين، مُثقَلَة بالهموم والمرارة والخوف من المجهول، وكنَّا مجبرين على الاستماع المتواصل لموسيقى هافي ميتال الحروب الصاخبة.

لم يُثمر كثيراً بحثي عن سولولاند في الأنترنت. لم يكن هناك ما يميِّز المدينة سوى الغابات الكثيفة والبحيرات التي تحيط بها من الجهات كلِّها، وبضع مزارع لتربية حيوانات الرنَّة. أخذتُ أبحث عن معلومات عن مخيَّم اللجوء، فربَّما هناك جمعية أو منظَّمة تعمل على مساعدة اللاجئين. لم أكن أعرف بالتحديد كيف وأين سأبدأ بتقديم خدماتي! كنتُ أفكِّر طبعاً بالمساعدة أوَّلاً في أمور الترجمة، وربَّما عبر هموم ومشكلات اللاجئين، قد أتمكَّن من تقديم بعض الحلول أو النصائح والإرشادات. وإن لم أكن مفيداً، على الأقلِّ، سأجمع مادَّة لكتابي المفترَض عن العلاقات الصعبة. عثرتُ أخيراً على صفحة في الفيس بوك عنوانها (مرحباً باللاجئين في مدينة سولولاند) لم يكن يتابعها سوى 34 شخصاً. وبدت الصفحة قديمة أو متوقِّفة. خانة التعليقات مغلقة، والصور والمواضيع القليلة المنشورة بالكاد حازت على تفاعلين أو لثلاثة. صورة لمجموعة كبيرة من اللاجئين يلعبون كرة القدم مع ثلاثة شبَّان من السكَّان المحلِّيِّين.

لاجئ يدفع كرسي امرأة عجوز، ويبدو أنه مَنْ يهتمُّ بالعجوز التي تعيش وحيدة، لهذا نال الشابُ اهتمامَ الصحيفة المحليّة في المدينة. رابط لتقرير منقول عن صحيفة بلد شَمالي مجاور، يتحدَّث عن الجدوى الاقتصادية للاجئين، في ظلِّ تناقص عدد السكّان باستمرار. ورابط آخر لأغنيّة غاضبة ضدَّ العنصرية، لمطرب راب مشهور.

كتبتُ رسالة واضحة ودقيقة للتعريف بنفسي وبرغبتي في تقديم العون للاجئين والمدينة إلى المشرفين على الصفحة. أطفأتُ الضوء، ونمتُ. قصفني كابوس! فصحوتُ في ساعة مبكّرة. ذهبت إلى الحمّام. شربتُ الماء من الصُّنبُور، وأخذتُ أتأمّل ملامحي، محاوِلاً استرجاع تفاصيل الكابوس. كنتُ في كلّيّة اللغات مع صديقتي منى أيَّام الدراسة الجامعية. كنّا نتحدَّث اللغة الفرنسية، ونضحك. ثمَّ وجدتُ نفسي في السجن معصوب العينَين، وكان هناك مَنْ يغتصبها إلى جواري، وكان أحدهم يطلب منّي أن أتحدّث الفرنسية وأنا أصغي لصديقتي وهي تُغتَصَب. ثمّ جاء أحدهم، وبدا أن الجلّادين جميعهم يهابونه ويحترمونه، وطلب منّي قراءة قصيدة لهنري ميشو. استغربتُ من معرفة الرجل بإعجابي الشديد بقصائد ميشو. طبعاً لم يكن للكابوس علاقة بأيِّ حدث واقعي، يخصُّ صديقتي منى التي هجرتني، وتركت الدراسة والبلاد، بعد أن زوّجها أهلها لرجل غني يقيم في نيويورك. عدتُ إلى السرير، تفقَّدتُ الفيس بوك والأنستغرام في هاتفي، ثمَّ غفوتُ من جديد.

في الصباح، وجدتُ ردّاً على رسالتي من صفحة (مرحباً باللاجئين في سولولاند) بتوقيع شخص يُدعى ماركو بوم. كانت رسالة ترحيب لطيفة، وتمنّى ماركو أن نلتقي في أقرب فرصة ممكنة. نزلتُ لمطعم الفندق لتناوُل الفطور، فوجدتُ المكان مكتظّاً بسيّاح يابانيّين. أخذتُ من البوفيه عصير برتقال وخبزاً وجبناً وبيضة مسلوقة وسلطة فواكه وقهوة. جلستُ إلى الطاولة مبتسماً، وأنا أراقب نشاط اليابانيّين وفرحهم وهم يتنقّلون من البوفيه إلى الموائد. كانت الصالة تزدحم بهم، لكنهم لم يكونوا صاخبين، كانوا يتنقّلون بسرعة من بوفيه المطعم إلى الطاولات، ويتكلّمون فيما بينهم، لكنْ، بالكاد تسمع أصواتهم، وكأنهم عائلة كبيرة من النمل. سألتُ النادل الشابّ الذي كان يجمع الصحون والأقداح الفارغة، إن كان هناك أيُّ مَعْلَم سياحي بارز في مدينة سولولاند. قال الشابُّ: نعم، لكنْ، ليس في الأرض، بل في السماء، هناك تلال على أطراف المدينة، توفّر إطلالة رائعة لمشاهدة ضوء الشَّمَال. قلتُ له: آه .. فهمتُ .. شكراً! أخذتُ قهوتي، وذهبتُ للخارج لتدخين سيجارة. كتبتُ ردّاً لماركو من هاتفي، شكرتُهُ، وقلتُ بأنني متفرّغ طوال اليوم، ويمكن أن نلتقي في أيّ وقت يناسبه. ردّ فوراً، وأرسل لي عنوان مقهى قريب من الفندق.

ماركو في نهاية العشرين من عُمُره. نحيل ويرتدي نظّارة طبّية، تضفي على ملامحه هدوءاً أكاديمياً قاتلاً في مسلسل درامي، ولديه إيماءة، فيها مسحة من الغموض والذكاء. يستغرق الحوار معه وقتاً أكثر من

الطبيعي. فهو لا يستعجل في الردّ، لكن، ليس بالطريقة المزعجة. ولا يستخدم صيغة (امممممم)، قبل أن يتكلّم، ولا ينظر في وجهك حين يفكّر في الإجابة، بل يختار نقطة ما حوله للتحديق فيها، وحين يجيب ينظر إلى عينَيكَ مباشرة مع نصف ابتسامة خجولة، وغالباً ما يستخدم مفاتيح الشكّ قبل الكلام (لستُ متأكّداً .. أظنُّ .. ربّما). وُلد ماركو في مدينة سولولاند. درس الفوتوغراف في العاصمة، وأنهى الماجستير في ألمانيا. وكان يعمل لحظة لقائنا في الصحيفة المحلّية للمدينة. كان يعيش في العاصمة قبل أن يتوافد اللاجئون على مدينة أجداده، فعاد لبيت الطفولة للعيش مع والدته. كان يظنُّ أن أهالي مدينته بحاجة لجهد كبير لتقبُّل الغرباء واللاجئين. لخّص لي ظروف المدينة وحادثة الاغتصاب. تواصل المغتصبون مع ضحيّتهم المُراهِقَة باللغة الإنكليزية عن طريق الأنستغرام، واغتصبوها في الغابة. ادّعى الشابّان، بأن الفتاة هي التي أرادت أن تمارس الجنس برغبتها، وحتّى إنها اقترحت الوضعيات لممارسة الجنس الجماعي. شكّل رجال من أهل المدينة جماعة نازية جديدة تُدعى (محاربو الشّمَال)، وأخذوا يُسيّرون دوريات في المدينة، بحجّة حماية نساء سولولاند. أخبرني ماركو أنه لم تقع حوادث جادّة حتّى الآن، فقط حالة واحدة حين اعتدى رجل من خارج دائرة (المحاربين) على لاجئ في إحدى البارات، وكسر أنفه. قال ماركو، بأن وجودي في المدينة مهمٌّ جدّاً، خاصّة في أمور الترجمة، وفهمي للثقافتَين. لم يكن هناك في

المدينة سوى مترجمَين اثنَين محترفَين، وهما دائماً مشغولان مع دائرة الهجرة والمحكمة ورجال الشرطة. ثمَّ تحدَّث ماركو عن معاناته في فهم اللاجئين، فقلَّة منهم يتكلَّمون الإنكليزية، وبعضهم لا يعرف سوى بضع كلمات شَمَالية. تفهَّمتُ ما يقوله، وشرحتُ له ظروف بلادنا وسوء بنية التعليم وتخلُّفها، ولا أدري لمَ تحدَّثتُ له بإسهاب عن سوء النظام الصحّي أيضاً. استفسرتُ عن صفحته التي تهتمُّ باللاجئين في الفيس بوك. فأخبرني أنها شبه مغلقة. أنشأها مع صديقته لافا، والتي تعمل مخرجة في مسرح المدينة. تلقَّيا الكثير من التعليقات المُهينة والساخرة، وهدَّدهما بعض العنصريِّين. أبلغ ماركو الشرطة، ولم يعد يهتمُّ كثيراً بالفيسبوك، فهو يعتقد أن وسائل التواصل الاجتماعي تُضاعِف من مشكلة الكراهية، ولا تُساهِم في نشر الوعي حول مشكلة اللاجئين. لم يستسلم ماركو في محاولة التقليل من حِدَّة غضب الأهالي وصدمتهم بوجود هؤلاء الضيوف غير المُرحَّب بهم. أخبرني بأنه فكَّر في مبادرة اجتماعية بسيطة، اسمها (في ضيافة الضيوف). كانت الفكرة بسيطة: يدعو أحد أهالي المدينة لاجئاً أو أكثر إلى بيته، ويقوم اللاجئ الضيف بإعداد العشاء لصاحب البيت. ومن خلال الطعام والشراب، يتعارفان على بعضهما بعض. وليكن مذاق الطعام جسراً لِلِّقاء وتبادل الحوار. حاول ماركو نشر إعلان ترويجي عن الفكرة في الصحيفة المحلِّية التي يعمل فيها. قوبل طلبه بالرفض والسخرية من قبَل زملائه. قال ماركو إن مدير التحرير عنصري بامتياز،

ولديه ميول نازية، يخفيها عن الآخرين. راح ماركو وصديقته لافا ينشران الفكرة بين الأصدقاء والمعارف. كانا قد حقّقا تجربتي (عشاء) قبل وصولي. واحدة كانت تجربة شبه صامتة وهادئة ومربكة مع عائلة لديها بنت وولد مراهقَين. خَجَلُ اللاجئين والمضيفين، وعدم وجود أيّ لغة مشتركة للتفاهم، أنهى العشاء ببرود وإرباك وابتسامات مجاملة. لكن التجربة الثانية كانت أكثر من ناجحة. حين دعا رجل يعمل في شركة قطع الأخشاب أربعة لاجئين إلى بيته. لقد استمتع الرجل كثيراً بطبخ اللاجئين، وشعر بتعاطف كبير تجاههما. وكتب الرجل لاحقاً رسالة لماركو، يُبدي فيها خجله وأسفه من عنصرية مدينة سولولاند تجاه هؤلاء الضحايا المساكين، ويشكره على مبادرته الإنسانية الجميلة في تنظيم دعوات العشاء، وطلب الرجل أن يطبخ في المرّة القادمة بنفسه للضيوف اللاجئين.

أعربتُ عن استعدادي للعمل مع ماركو في مبادرة (العشاء). شكرني، ونصحني بأن أتعرّف أوّلاً على اللاجئين لكسب ثقتهم، ووعد أن يترك رَقْم هاتفي لدى مكتب الخدمات الاجتماعية في مخيّم اللجوء. وقال إنه متأكّد من حاجتهم إلى خدماتي. كان ماركو يراقب الفتاة النادلة، ويبتسم لها بين الحين والآخر. لاحظ أنني انتبهت لنظراته لها. فقال مبتسماً، هي ابنة خالتي .. رسّامة رائعة وإنسانة لطيفة، اسمها لاورا، دعني أعرّفك عليها!

أعزّائي اللاجئين!

قبل أن أقول كلمتي عن هذا الشَمال، دعوني أتحدّث أوّلاً عنّا، نحن اللاجئين، الذين تُلاحِقنا اللعنات والكوابيس من كلّ صوب. نحن الذين نقضي حيواتنا بين نارَيْن، نار العودة ونار البقاء.

أعرف أن أغلبكم سيتفهّمني، بل إن كثيرين سيتّفقون معي بحماس. وربّما سيقفز أحدهم من شدّة الإثارة، وهو يرى نفسه في مرآة كلماتي: (خَرَا على هذه الحياة، هذا هو الشَمال، وهذه هي مصائب اللاجئ!) وأعرف أن بعضكم سيشعر بالغضب، ويصطفُّ مع العنصريّين في سؤالهم المسموم: لمَ لا تعود إلى بلادك، ما دام لا يعجبك أهل البيت المضيفون؟!) هذا السؤال المخادع والسطحي هو تجسيد حقيقي لأنانية الإنسان وهشاشته على هذه الأرض - المنفى. لكن، دعوني أقل لكم الآن، وبكلّ أمانة، أنا وأنتم واللاجئون جميعهم: مرضى!

زميلي اللاجئ! أعلم أن فايروس الغربة سيتسلّل إلى ذهنك في لحظة وداع البيت. وأعلم أن هذا الفايروس من أشدّ أنواع الفايروسات قِدَماً وغرابة في حياة الإنسان. ولم يُعثَر له حتّى يومنا هذا لا على لَقَاح، ولا على علاج فعّال. مقاومة مرض الغربة العضال هذا يعتمد، فقط، على طبيعة شخصيّتك أنت. ليس هناك منهج ولا خارطة طريق لمنفاك. ومع الأسف، عليك أن تمرّ بمراحل الأزمة كلّها، لتتمكّن من التعايش أخيراً مع ألم الفقدان. مع أوّل خطوة لك في طريق الهجرة،

ستشعر بأعراض المرض، ولن تتمكّن بسهولة من إدراك ما يحدث لك. ستمرُّ بمراحل انسلاخ عديدة في محاولة للتصدّي للصدمة القاسية التي يُخلّفها المنفى. أولئك الذين سيدافعون بقوّة عن البيت الجديد وأهله، في الحقيقة هم يعانون ممّا يُسمّى في علم النَّفس (الهَوَس الخفي)، فهم سيُلوّنون المكان الجديد بالمثالية، وبأن كلَّ ما فيه أقرب إلى الكمال. هنا الجنّة، وهناك كان الجحيم. وسيُقلّلون من شأن صدمة خسارة الأهل والأصدقاء. سيشعرون بحماس في بيوت مضيفيهم، وسيحاولون العمل بطاقة كبيرة أكثر من اللازم. وسيُنكرون مشاعر الخوف والشعور بالذنب كلَّها. سيكونون عِدَائيّين تجاه اللاجئين الآخرين، الذين يتذمّرون من حيواتهم الجديدة! إلى أن ينتكسوا من جديد، وتتمزّق طمأنينتهم الوهمية. تتسلّل مشاعر الخيبة والمهانة إلى أرواحهم، ويسقطون في الخواء. ستتحطّم أوهامهم عند أوّل جدار عنصري يفصل بينهم وبين الطمأنينة التي يحلمون في الدخول إلى رحمها من جديد. سيختبئ بعضكم في دوائر مغلقة مع أصدقاء من بلده، وسيرفض اكتشاف البلد الجديد. ستشعرون في بداية حيواتكم الجديدة بالشلل والفراغ. وستبحثون بهَوَس عن (إنسان)، تشعرون معه بالدفء والأمان من جديد. وحين تعثرون عليه، ستحطّمونه أو سيزيد هو نفسه من الدوار الذي تشعرون به، ويُدمّر آخر رغبة فيكم، في محاولة نسج علاقات إنسانية جديدة على أنقاض علاقاتكم القديمة. ستكون أحاسيسكم تجاه مَنْ تتعلّقون به مرهفة وضعيفة، مثل الأطفال.

ستحلمون بـ (إنسان) هو الآخر هَش، أن يكون لكم الملجأ والمخلّص، أن يكون الأمّ والأخ والبيت والأهل والأصدقاء. ستعاملون صديقاتكم وأصدقاءكم الجدد في بيت اللجوء، بلطف زائد، وبحميمية محزنة، وستتعلّقون بهم بهَوَس. إنكم أطفال يتامى، بحاجة للكثير من الحبّ والحنان، تريدون حضناً دافئاً، وصدراً حنوناً، لتذرفوا الدموع. أنتم، أعزّائي اللاجئين، تمرّون في بدايتكم في مرحلة (البيضة). بعضكم يعيشها برومانسية، وآخرون بكآبة حادّة. اعلموا أنه ليس هناك تجربة تضاهي الهجرة قسراً غير تجربة موت شريك حياة، أو فَقدِ أمّ لطفلها في حادث مفاجئ. بل ربّما يكون الرحيل القسري أقسى بكثير. لأنه ليس موتاً، بل احتضاراً طويلاً. في الكثير من الحضارات القديمة كان النفي أشدّ العقوبات قسوة. وكثير من الديكتاتوريات كانوا يُجبرون المعارضين على الرحيل قسراً من أراضيهم وبيوتهم. المنفى هو مقصلة مُثلّمة، لا تقتلك بضربة واحدة، بل تسبّب لك جرحاً عميقاً وخطيراً، وتتركك تنزف حتّى النهاية. جرحك مُعقّد، سيترك آثاراً جانبيةً كثيرة على شخصيّتك. ستتلوّث بمشاعر الغضب والكراهية. ستخسر قيمة الصبر، وستكون في كثير من المرّات لحوحاً متطلّباً، تلوم الآخرين على عدم تلبية حاجاتك ورغباتك. ستصبّ جام غضبك على المضيفين وكلّ ما حولك! رغم أنك تعرف أن عليك بمفردك بذل جهود مضنية لتحمّل تبعات الكارثة! سيصبح حتّى اسمك، المألوف بالنسبة إليك، غريباً. ستشعر أنك في كلّ يوم معرّض للتحقيق في

مركز شرطة. ما اسمك؟ هذا السؤال البديهي، سيصبح وكأنه منبّه مزعج، لا يتوقّف عن الرنين في رأسك طوال حياتك في الغربة. اسمك الذي كان بضعة حروف عادية، سيتحوّل إلى صليب، عليك حمله مع بقية الصلبان: لون بشرتك، ملامحك، المكان الذي وُلدتَ به، وصلبان عديدة أخرى. سيُوصلك المنفى بمساعدة خبث المضيفين وجهلهم وأنانيتهم، إلى محاكمة البيت الذي هجرتَهُ بقسوة. بيتك الذي خذلك فهجرتَهُ، وها هو يهجرك، وتشعر أنكَ مَنْ خذله. سيراكَ مَنْ بقي هناك في الوطن متهوّراً، خائناً، جباناً، أنانياً يبحث عن خلاصه الشخصي لا غير. سيموت أعزّاؤك وأصدقاؤك وأحبّاؤك في رسائل الواتساب والفيس بوك. ماتت أُمُّكَ البارحة بالجلطة الدماغية، وكانت حتّى آخر لحظة، يمزّقها الحزن على رحيلك. قُتل صديق طفولتك في حادث سيّارة. تسمّم ابن أخيكَ بطعام ملوّث في أحد المطاعم الشعبية. سُجن ابن عمّكَ لمعارضته النظام، وخرج مشلولاً من السجن. أخوك الكبير يمرُّ بأزمة مالية حقيقية، عليك مساعدته. لمَ لا ترسل الهدايا؟ لمَ لا تتّصل كثيراً؟ هل نسيتَ أهلكَ؟! لقد سلبتْك الغربة كلَّ شيء! ستتحوّل إلى متفرّج مثّهم، من قبَل المضيفين ومن قبَل الباقين في البيت. أنتَ مشلول، محطّم، تشعر بأنك مهدّد، لا تنفعك الدموع ولا الآهات. ها أنتَ تنهض من جديد! تنغمس في الحياة، تنتهي مرحلة البيضة بمثاليّتها وآلامها. تدخل مرحلة الحورية. تنطُّ هنا وهناك، لتعثر على قُوت يومك، المعنوي والجسدي. تكافح، تتقبّل مصيرك

بمرارة. تشتغل في مهنة، لا تناسب تعبك ولا معاناة أهلك الذي ضحّوا بكلّ شيء من أجل أن تُكمل دراستك. ها أنتَ، يا مهندس، تغسل الصحون في مطعم. وما الذي ستفعله أنتَ بشهادة المحاماة؟! ستقدّم الكباب لزبائن سُكارى عنصريّين بعد منتصف الليل. وأنتِ، عزيزي .. التجارة التي درستَها، ستكون عبئاً عليكَ، وليست أداة لشقّ طريقكَ في الحياة. عليكَ أن تتعلّم حرفة جديدة ومهارات جديدة، وأن تنسى ما تعلّمتَهُ وما حاولتَ أن تكونه. عليكَ أن تنزع جِلْداً، وتلبس جِلْداً جديداً، وأن تتحمّله حتّى إن لم يكن يُناسب مقاسكَ. ستُنجب أولاداً، لن يتحدّثوا لغتكَ الأمّ. لن تحكي لهم قصصاً، ولن تغنّي لهم أغاني طفولتكَ. لن تفهم أفلام الكارتون التي يتفرّجون عليها، ولا أغلب هوايتهم. ستكافح من أجل معرفة أطفالكَ الذين سيصيرون أكثر تعقيداً بالنسبة إليكَ كلّما كبروا. لن تفهم نكاتهم، وستضحك لها مجاملةً. ولن يجاملوكَ هم إن أطلقتَ نكتة غير مفهومة. ستقضي عُمُركَ تشرح للمضيفين ماذا تحبُّ في بلدهم، وماذا تكره. تخيَّلْ شخصاً يعيش في زنزانة، وهناك مكبِّر صوت لا يتوقّف عن طرح الأسئلة نفسها ليل نهار: ما اسمكَ؟ من أيّ بلد؟ هل تحبُّ الشتاء؟ ما رأيكَ بمُدُننا؟ لماذا تركتَ بلدكَ؟ ما رأيكَ بنا نحن الشَّمَاليّين؟ وستكتشف أن هذه الأسئلة كلّها هي مجرّد تنويعات مزيّفة، لسؤال واحد يدور في عقول مضيفيك: (لماذا أتيتَ إلى هنا؟!)

أعزّائي اللاجئين!

أنتم، على الأقلّ، ستشعرون بغرابة أعراض مرضكم،

المنفى. رغم أن علاقاتكم بعلم النَّفس في بلدانكم المتخلِّفة شبه مجهولة، فالطبيب النَّفسي ما زال للمجانين فقط! سيُضاعف جهلكم بأحوالكم النَّفسية المتقلِّبة من حِدَّة المرض، ويتسبَّب لكم ذلك في ورم سرطاني آخر، اسمه: عقدة النقص. أمَّا مُضيفوكم الشَّمَاليُون، سيُقلِّلون من شأن أمراضهم الخطيرة، وسيحاولون إنكار أشدّ أمراضهم خطورة: عقدة التفوُّق! فهم في بيوتهم، ولا يمكن تشبيه كرم ضيافتهم الشيزوفريني بالمرض. فهذا جحود ونكران للجميل. فهم أصحاب البيت، ولهم الحقُّ بكلّ ما يفعلونه. هم الأسياد وأنتم العبيد. تعرفون أننا نسمّي صاحب الدار (ربّ البيت). نعم، عزيزي اللاجئ، إنه إله الشَّمَال، ربّ البيت الذي عليكم أن تُصغوا لتعاليمه، وتُطبِّقوا قوانينه، وتسألونه العفو عن أخطائكم، وتُصلُّون من أجل النِّعَم والهدايا كلّها التي قدَّمها لكم، أن تشكروه ليل نهار، دون شكوى من تصرُّفاته. فكلُّ ما يقوم به فيه حكمة، لا تفهمونها. فهو العليم والكريم والخبير والمتمدِّن والديمقراطي والذكي والقادر على كلّ شيء. أنتم اللاجئين الذين تفوح رائحة الخطيئة من أسمائكم وألوان بشراتكم ومن قمصانكم، عليكم أن تكفِّروا عن ذنب قدومكم إلى أرض الشَّمَال من دون إذن طوال حيواتكم. مَنْ سمح لكم أن تقطعوا هذه المسافات كلّها، أن تعبروا الصحاري والجبال والمحيطات، لتدنِّسوا أرض الشَّمَال، أرض الأجداد الأسطورية الخالدة؟!

إن اشتكيتم مثلاً لمضيفيكم، ولو بخجل، من مشاعر

العنصرية العدائية تجاهكم، سيقلّل الشَّمَاليُون السعداء من شأن هذا المرض. سيعترفون بقُبح الأمر، لكنهم سيقولون لكم إنه مجرّد مرض بسيط محدود، وسيُلقون التهمة على غير المتعلّمين بشكل جيّد، والذين يقطنون في الأرياف والمُدُن الصغيرة، التي لم تعتد على فكرة الغرباء والاختلاط. سيُفهِمونكَ أنه مجرّد سُمٌّ ينحصر في أذهان أقلّيّة في مجتمعهم، لا تمثّل حقيقة قِيَم الشَّمَال الأسطورية في المساواة والعدالة وحقوق الإنسان. هؤلاء الذين يُنكرون خطورة التفوُّق العنصري، أصناف مختلفة. وهم يحملون أنفسهم في دواخلهم، درجات متباينة من العنصرية. مثلما تحملون، أنتم اللاجئين، درجات متباينة من أمراض الغربة. هناك مَنْ ينكر العنصرية بسبب جهله، وآخرون بسبب الغرور، وبعضهم من أجل الدفاع الأعمى عن بيت الشَّمَال السعيد. لن تفهم بالتحديد محاولاتهم المستميتة في تحجيم مشكلة مرض العنصرية والتعصُّب. وستستيقظ فكرة سينمائية فنتازية في ذهنكَ: ماذا لو أفاق أحد هؤلاء الشَّمَاليِّين ذات يوم ووجد لون بشرته وملامحه تحوَّلت إلى وجه شرقي! عندها فقط سيفهم ما الذي نتحدَّث عنه حين نتحدَّث عن العنصرية! ويمكن أن يكون هذا هو عنوان الفيلم.

كم مرّة حاصرتكَ النظرات الخائفة والمريبة والغاضبة، في العمل والأماكن العامّة؟! كم مرّة تحوَّلت العيون من حولكَ لكاميرات مراقبة بوليسية؟! كم مرّة شعرتَ أنكَ (مجرم) افتراضي محتمل؟! كم مرّة رفضوا أن يؤجّروا لكَ بيتاً بسبب اسمكَ ولون بشرتكَ؟! كم مرّة تجنّبوا

أن يجلسوا بقربكَ في الباص أو الميترو؟! كم مرَّة زعق كحوليٌّ فجأة بوجهكَ، من دون سابق إنذار، ومن دون سبب؟! كم مرَّة سخروا من لغتكَ وثقافتكَ وانتمائكَ؟! كم مرَّة أفسح أحدهم لكَ المجال، لأن تسحب الأموال من الصرَّاف بعد أن كان دوره، فأنتَ خلفه مثل ظلٍّ شبح مخيف، والله وحده يعلم ما هي نواياك؟! كم مرَّة أذلَّكَ موظَّف الخدمة الاجتماعية، وتعامل معكَ بحِدَّة وكراهية؟! كم مرَّة عاقبتْكَ الشرطة ضعف العقوبة المعتادة، بسبب أيِّ مخالفة بسيطة؟! كم مرَّة رفضوا أن يُدخلوكَ النايت كلوب؟! كم مرَّة جلستَ لتشاركَ أحدهم طاولته، فانسحب غاضباً دون أن يلتفتَ إليكَ؟!

مرَّة أخرجتُ هاتفي من جيبي، فسقطت ورقة إيصال من جيبي سهواً. لحقتْني امرأة، وقالت بعدائية وغضب: هنا الشَّمَال، وليس بلدكَ المزبلة! ثمَّ توجَّهت إلى الحاوية، ورمت الإيصال حتَّى دون أن تعرف إن كنتُ أحتاجه أم لا! كم مرَّة كنتَ مع فتاة شَمَالية، فحاول آخرون التعدِّي عليكَ أو السخرية منكَ؟! كم مرَّة سمعتَ جملة: عد إلى بلدكَ، أيُّها الإرهابي؟! كم مرَّة تعرَّضتَ في المطار للتفتيش أكثر من المعتاد؟! كم مرَّة لحقوكَ إلى الطائرة، ليتأكَّدوا للمرَّة العاشرة من جواز سفركَ؟! كم مرَّة رُفض طلبك للعمل بحجج واهية؟! كم مرَّة عاد طفلكَ المولود في شَمَالهم من المدرسة بأفكار عنصرية من قبَل المدرِّس أو التلاميذ! كم مرَّة تحرَّشوا بكَ لفظياً بعنصرية؟! كم مرَّة اعتدوا عليكَ جسدياً؟!

هذا كلُّه وأكثر بكثير، ويُصرُّ هؤلاء السعداء بأنه مرض

مسيطَر عليه، ومحصور في نطاق ضيِّق. سيقولون لكَ إنها مشاعر عدائية عاطفية زائلة. اعلم، عزيزي اللاجئ، أن عنصرية البيض هي عقيدة راسخة مثل بقية العقائد، وجذورها ضاربة بعمق في لاوعيهم. إن كنتَ أنتَ تعاني من الجهل بسبب الحروب وسوء التعليم، وتسأل نفسكَ طوال الوقت، لمَ أفضل نظام صحّي وتعليمي في العالَم يُنجب هذه الكآبة والعنصرية؟! فهؤلاء البيض يطبِّقون قانون (الجهل المتعمَّد). ليس اليوم، بل منذ قرون. منذ قرَّروا أن جذورهم النقية تعود إلى الثقافة اليونانية. ناضلوا منذ القرن التاسع عشر، وأصرُّوا على أن اليونانية هي ذاتية المنشأ. هكذا وكأنها هبطت من السماء، لا تأثيرات فيها من الثقافات الأخرى. إنهم أبناء سلالة فريدة وطاهرة وناصعة البياض. منذ أن أخذوا يفتحون الجماجم بهَوَس، ويدرسون العظام، ويؤلِّفون عشرات بل مئات الكُتُب في علم السلالة، فقط من أجل أن يُثبتوا تفوُّقهم وأحقِّيَّتهم في حُكم العالَم. في البداية حملوا الصليب، وغزوا العالَم، ليطهِّروا الآخرين من أرواح الشياطين. ثمَّ تضاربت قِيَم صليبهم ودينهم مع شَغَفهم الفاوستي بعلم الأجناس والسلالات. فدينهم يقول إننا من أصل واحد، هو آدم، وهذا لا يناسب أبداً نظريات تفوُّقهم. كيف نكون من أصل واحد، ونكون على مستوى واحد مع بقية البشر؟! قد تظنُّ أن هذه الأسئلة كانت تحدث في الماضي. اعلم، عزيزي اللاجئ، أن خبراء الجينات حتَّى في هذا العصر ما زالوا يُنظِّرون بين الحين والآخر للتفرقة العنصرية. مرض هؤلاء البيض

مزمن، وعنصريّتهم دِين فُصامي، مرّات يمارسون شعائره بالسرّ، ويخجلون منه، ومرّات يمارسونه بالعلن، وبكلّ وقاحة. إنه مرض متغلغل بقوّة في البيئات الاجتماعية والاقتصادية والافتراضية وعبر التاريخ والفنّ والأدب وعلم الاجتماع والسياسة.

مِن كاليغولا الذي ارتكب مجازره بحقّ اليهود، وحرمهم من حقّ المواطنة اليونانية والرومانية حتّى هتلر وأفرانه، ومن داروين حتّى واتسون، تاريخ طويل وحشي ومخزٍ، محاولات مستميتة من أجل إثبات تفوُّق العِرق الأبيض والسيادة على العالَم. بعد داروين وأصل الأنواع، اشتعلت حمّى تحسين النسل. عمليات الإجهاض القسري، والتعقيم، والإبادة الجامعية والفصل العنصري. هنا في الشَّمَال السعيد هذا، حتّى سنوات السبعينيات كان هناك معهد شهير، ما زال يعمل على فكرة تعقيم المِثْلِيِّين والمعاقين والمهاجرين. مولّت المعاهدُ والجامعاتُ الدراساتِ والنظرياتِ بسخاء. بالتأكيد سمعتَ عن جيمس واتسن، أحد مكتشفي بنية الدي إن إي، فقد اقترح في عام 2000 أن هناك علاقة بين اللون والجنس، وقد افترض أن أصحاب البشرة السوداء لديهم ميول جنسية أقوى، وأن الأفارقة أدنى منزلة جينية. منذ سنوات طويلة وهؤلاء البيض يصيحون من المنابر العلمية والأكاديمية، الاختلاط العِرقي يعني انتحار العِرق الأبيض، فحُصرت الزيجات بين الأعراق، وأصبح الفصل العنصري سياسة راسخة. وها هم، عزيزي اللاجئ، أبناء الشَّمَال السعداء بتِقْنِيّاتهم المتقدّمة، وعبر عصر

المعلومات يرفعون لواء المركزية البيضاء من جديد. ها هو العصر الرَّقْمي يعيد وبقوَّة إنتاج النزعة البيضاء، ها هي وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي تغذِّي الهيستريا الجماعية ضدَّ الآخرين. لقد أُحيَت وسائل الاتِّصال الجديدة والمدهِشة المدَّ العنصري .. وهلُلويا، أيُّها الجنس المتفوِّق!!

أعزَّائي اللاجئين،

مبروك! مرضى عقد التفوُّق تقدَّموا خطوة، إنهم يطبِّقون اليوم قانوناً جديداً: الاختلافات السلوكية القائمة على العِرْق مرفوضة، الاختلافات القائمة على الفوارق الثقافية مقبولة.

أعزَّائي اللاجئين:

أنتم عبيد العصر!

كان ماركو محقّاً! مخيّم سولولاند للاجئين كان بمساس الحاجة لمَن يفهم لغته. انغمستُ منذ يومي الأوّل في أعمال الترجمة. كان المخيّم مكتظّاً باللاجئين الشبّان، ولا توجد فيه سوى عائلتَين، وكانوا يقضون جُلّ وقتهم في متابعة الحياة التي هجروها في بلادهم عبر هواتفهم الخلوية. في النهار يذهبون للمدينة للتسوُّق، ويعودون محمَّلين بالخضروات والرزّ واللحوم، وبالكثير من المواقف الكوميدية، بسبب مفارقات اللغة. لم تكن مدينة سولولاند مستعدَّة لاستقبال اللاجئين. لهذا وفَّرت المدينة مجمَّعاً سكنياً على أطراف المدينة، تحيط به الأشجار والبحيرات المتجمِّدة من الجهات كلِّها. كان اللاجئون يصفون سكنهم بسجن في ثلّاجة. لم يكن يُسمح لهم بالسفر خارج المدينة إلّا بإذن السلطات. كلُّ لاجئ يحصل على راتب شهري يكفي للأكل والشرب. أمّا الذين كانوا يرتادون البارات، ويبحثون عن التسلية، فكانوا غالباً ما يستدينون المال من بعضهم. الصليب الأحمر هو مَن يشرف على المجمَّع السكني. هناك مكتب للخدمات الاجتماعية، فيه أربعة موظَّفين. حارسان ضخمان ومتجهِّمان، يتجوَّلان طوال الوقت في المجمَّع، لم يرتاحا منذ البداية لوجودي الطوعي في المجمَّع السكني. كان أكثر ما احتاجه اللاجئون منّي هو ترجمة البريد، من دائرة الهجرة والشرطة والمركز الصحّي والبنوك. وكنتُ أترجم أيضاً بعض طلباتهم البسيطة ممّا يحتاجونه لشققهم من بعض قِطَع الأثاث والشراشف والبطّانيات وأدوات التنظيف، والتي كان يقدّم بعضها

المخيّم، وبعض الحاجيات كانت تأتي من متبرّعين من أهالي المدينة. أغلب الشبّان في المجمّع السكني تشاركوا المال لشراء بلايستيشن وشاشة تلفزيون كبيرة لِلَعب الفيفا، وكانت مباريات كرة القدم الافتراضية بين الأندية العالَمية الشهيرة هي أهمّ تسلية لكسر وحشة ليالي الشتاء الطويلة ورتابتها.

أوّل المشكلات التي حلّت عن طريق فهم لغة الطرفَين، هي مشكلة بسيطة لشابٍّ في منتصف العشرينيات، اسمه مراد. كانت أسنان مراد سيّئة، بسبب الإهمال الشخصي. كان غاضباً من موظّف الخدمة الاجتماعية، لأنه لا يلبّي رغبته الفورية في زيارة طبيب الأسنان. أمّا الموظّف، فكان منزعجاً جدّاً من عناد مراد وسلوكه، بعد أن شرح له لأكثر من مرّة النظام الصحّي باللغة الإنكليزية، بينما مراد لم يكن يعرف من الإنكليزية سوى كلمات الترحيب، وبعض الشتائم التي تعلّمها من الأفلام. خرج مراد غاضباً من مكتب الموظّف بعد أن شتمه (فوك يو اند فوك يور سيستم). قلتُ لمراد بلطف، يجب أن تعتذر من الموظّف قبل أن أُترجم لكَ. شرح له الموظّف، من جديد، بأنه ليس من السهل الحصول على موعد فوري لطبيب الأسنان، حتّى بالنسبة إلى المواطنين أهل البلد، هذا يحدث، فقط، في الحالات الطارئة. ومراد لم يكن يعاني من ألم أو أيّ أعراض، تستوجب زيارة الطبيب في الحال. وأوضح له الموظّف، بأن لا داعي للغضب منه، فهو غير مسؤول عن تشريع الأنظمة والقوانين. أخبرني مراد لاحقاً بأنه نادم على القدوم للشّمال. حاولتُ أن أرفع من معنوياته،

وذكَّرتُهُ بأننا جميعاً، نحن اللاجئين والمهاجرين، نعاني صعوبات في البداية. لكن المرء يبدأ بالتعوُّد والتأقلم، كلَّما فهم طبيعة الحياة هنا، وكلَّما تحوَّلت الصعوبات إلى مجرَّد روتين حياتي لا مفرَّ منه. ذكَّرتُهُ بالحقيقة المربكة، نحن نأتي من أكثر البلدان فوضى وفساداً في العالَم إلى أكثر البلاد تشدُّداً في النظام. هنا في الشَّمَال اتِّباع القواعد والأنظمة والقوانين أقرب إلى العبادة. كان مراد يعمل حلَّاقاً قبل هروبه. كان يعيل عائلته الكبيرة، وكانت له خطيبة. أخبرني بأنه ليس لديه أيّ مشكلات سياسية أو مشكلات أخرى مع الميليشيات الدينية الطائفية. كلُّ ما في الأمر أن عمله كحلَّاق، لم يكن يوفِّر له مردوداً مادِّياً كافياً. فكيف له أن يتزوَّج حبيبته ويستأجر بيتاً ويتكفَّل بأمور زوجته وعائلته المكوَّنة من ستِّ إخوان وأخوات وأُمِّه المسنَّة. ذُبح والد مراد في الحرب الأهلية الطائفية الأخيرة، ومثَّل الجناة بجثَّته، ورموها في مكبِّ النفايات.

رحتُ أتعرَّف على اللاجئين تباعاً في المجمَّع السكني. رغم أنني كنتُ مستعدَّاً، إلى حدٍّ ما، إلى أفكار وتصوُّرات ومشاعر مرحلة (البيضة)، حيث المشاعر العشوائية فيما يخصُّ توقُّعات المستقبل الزاهر في البلد الجديد، أو الغضب والشكوى الدائمة وخيبة الأمل من نقيض الصورة المثالية التي تخيَّلها بعضهم عن سعادة الشَّمَال! أقول رغم خبرتي واستعدادي، فقد كانت هناك مفاجآت عدَّة في أثناء عملي في الترجمة. منذ وقت طويل آمنتُ أن الإنسان هو عبارة عن صندوق مفاجآت. ولم تكن هذه

الحقيقة الراسخة تُقلِقني، بقدر ما كانت تثير فضولي. لم يصدّق أغلب نزلاء مخيَّم اللجوء، أنني تركتُ العاصمة وعملي في المطعم من أجل العمل التطوُّعي ومساعدتهم. لهذا كانوا بحاجة إلى (نظرية المؤامرة والتخوين) التي تزدهر خاصَّة في بلدان الشرق. بعد أسبوع من عملي في الترجمة، قال لي شابٌّ اسمه جمال، والذي يعتقد أن نصف اللاجئين في المجمَّع لا يستحقُّون اللجوء، وقد جاؤوا، فقط، من أجل المغامرة وجمع المال، بأن الكثير من اللاجئين يعتقدون أنني جاسوس للسلطات المحلِّية والشرطة. تفهَّمتُ كلامه، وحدَّثتُهُ، أيضاً، عن صراع الأجيال بين اللاجئين. بلادنا كانت تفرِّخ في كلِّ عقد أو عقدَين من الزمن جيلاً جديداً من اللاجئين. وبدل أن يكون النقاش بين الأجيال حول أسباب كوارث البلد وإمكانية التغيير وتحقيق السلام وسُبُل العودة الآمنة للبلاد، يتحوَّل الموضوع إلى صراع واتِّهامات متبادلة وتخوين وتجريح. كلُّ جيل من اللاجئين يعتقد بأنه أجدر من غيره بحقِّ اللجوء والحماية الدولية، وبأنه كان أفضل من الجيل الذي تلاه في أمور الاندماج في البلد الجديد، وتقديم فكرة جيِّدة عن ثقافتهم المحلِّية التي تركوها تتمزَّغ في وَحْل الحروب. دائماً هناك إحساس بأن اللاجئين الجدد يخرِّبون صورة اللاجئين القدامى، والذين عانوا كثيراً وعملوا بصبر، من أجل أن يتقبَّلهم المجتمع المُستقبِل.

ضحكتُ واستمتعتُ كثيراً خلال الأسبوعَين الأوَّلَين في أثناء عملي في الترجمة. كانت سخرية اللاجئين

وهم يقارنون أحوال الحياة في بلادنا بطبيعة الحياة في الشَّمَال، ذكية ومرَّة. لا يوجد هناك أجمل من أن تسمع نكتة بلغتكَ الأمّ، وهذا ما كنتُ أفتقده كثيراً في السنوات الأخيرة. مرَّات كنتُ أشعر بخدر لذيذ في جبهتي، بمجرَّد أن أسمع أحدهم يصفِّر لحن أغنيَّة من أيَّام مراهقتي وشبابي. كانت ملامح اللاجئين ووجوههم ورائحة طعامهم وأصواتهم تجعلني أشعر بالنشاط، وكنتُ أشعر نفسي مَحميَّاً داخل شرنقة منسوجة من الحميمية والرضا عن النَّفس. كانت هناك طبعاً الشكوى الدائمة من القوانين الصارمة والبيروقراطية، مع ذلك، كان أغلب اللاجئين يتَّفقون على أن احترام المواطنين الشَّمَاليِّين للنظام والقوانين في البلد هو سبب رفاهية بلدهم. كان هناك شابٌّ اسمه سالم يلقِّبونه بـ (الشرطي البخيل)، وهو بمثابة أيقونة للتندُّر من قبَل الآخرين. كان أغلب نزلاء الشُّقَق يتشاركون شراء الموادّ الغذائية والحاجيات الأخرى. أمَّا الشرطي سالم، فكان يرى أن زملاءه في الشُّقَّة مسرفين جدَّاً، لهذا عزل أغراضه وحاجياته. وكان زملائه يقولون إنه لا يأكل سوى الرزّ ومرق الهواء! ويقصدون مرق البطاطا الذي يعدُّه، والذي يكون خالياً من اللحم أو البقوليات أو الخضروات الأخرى. راح زملاؤه في السكن يُزعجونه حين يتطفَّلون على سُكَّره وشايه وحاجاته الأخرى. كانوا يتَّهمونه بأنه لا يشتري الشامبو ومعجون الأسنان، وبأنه يستخدم حاجياتهم في الحمَّام. وكانوا يتندَّرون على صندوقه السرِّيّ. وهو صندوق كارتون مخصَّص للموز، يدَّعي شركاؤه في

السكن، أنه يحتوي على ما يسرقه من المطاعم والأماكن الأخرى. ملاعق، سكاكين، مملحة صغيرة، أقداح، ورق تواليت وحاجات عديدة أخرى. اشتكى سالم لمكتب الخدمات الاجتماعية من المضايقات، وطلب سكناً خاصًا به، وكان الردُّ بأنه لا يوجد حالياً مثل هذه الامتيازا! وفي الوقت الذي كان زملاؤه يتصايحون بحماس على الأهداف والفرص الضائعة في فيفا كرة القدم، كان الشرطي ينزوي وحده في غرفة المطبخ لتعلُّم لغة الشَّمَال عن طريق قاموس سميك، استعاره من المكتبة العامَّة. سالم، حسب روايته، كان يعمل شرطياً في البلاد، اكتشف عمليات فساد كبيرة في مركز الشرطة الذي كان يعمل به، فتعرَّض لمحاولة اغتيال. المفارقة أنه حين هرب إلى بلد مجاور، عمل الشرطي سالم وسيطاً لعمليات تهريب اللاجئين.

كانت هناك مشكلتان مقلقتان كنتُ أحاول أن أساهم في حلِّهما. كان ماركو مطَّلعاً على مشكلة الحمل، لكنه لم يكن مطَّلعاً على مشكلة القرحة. أغلب اللاجئين كانوا يحبُّون ويحترمون ماركو، ويلقِّبونه بالراهب، بسبب هدوئه وحكمته وطيبته وكرمه في مساعدتهم. مشكلة الحمل كانت خطيرة. كان هناك شابٌّ اسمه مصطفى، وهو شابٌّ وسيم، كان يداوم على الذهاب إلى صالة الجيم في مركز المدينة. وكان الآخرون يقولون إن عضلاته وجسمه الرياضي كانوا يُشعرونه بالتفوُّق أكثر من اللازم، خاصَّة غروره في التقرُّب من الفتيات في المدينة. وكانت لديه ميزة أخرى، هي إجادته اللغة

الإنكليزية، واطّلاعه الكبير على الموسيقى الغربية، ومهارته في استخدام مواقع التواصل الاجتماعي. لكن عضلاته لم تُسعفه حين اعتدى عليه ثلاثة رجال ليلاً في الشارع، فنُقل إلى رَدهَة الطوارئ في المستشفى. كان مصطفى قد تعرَّف على فتاة في بار النايت كلوب، وكانت هي التي وفَّرت له طريقة للدخول إلى المكان. كان ممنوعاً على اللاجئين الذين لم يحصلوا بعد على إقامات الدخول إلى النايت كلوب. بعد فترة حملت الفتاة منه. وظهر أن الفتاة كان لديها صديق، يمكث بالسجن، بسبب تجارة المخدِّرات. أرسل صديقها الرجال الثلاثة من أجل ضرب مصطفى. وهدَّدوه إن لم يغادر المدينة ويترك الفتاة، فإنهم سيقتلونه. لم يُبلِّغ مصطفى الشرطة، فقد كان خائفاً ومرتبكاً. كانت الفتاة تطالبه بتحمُّل مسؤولية الطفل، وكان صديقها من جهة يمثِّل تهديداً جِدِّيّاً لحياته. بدا لي حينها أن أغلب المشكلات، سواء من أهالي سولولاند أو اللاجئين، كانت تبدأ بسبب الكحول أو المخدِّرات أو الجنس (لا جديد تحت الشمس!) ثمَّ تتفاقم بسبب العنصرية الصامتة التي تسري في عروق النظام، وبسبب استعداد (الضيوف والمضيفين) لتضخيم المشكلات وسوء الفهم. أمَّا مشكلة القرحة، فكانت تخصُّ رجلاً في نهاية الثلاثينيات من عُمُره، اسمه قيس الزهيري. عاد الزهيري في إحدى الليالي ثملاً جدّاً، ويبدو أنه تبادل الحديث مع الحارسَين، ثمَّ تحوَّل الكلام إلى شجار. لا يذكر الزهيري بالتحديد ما هي المشكلة، يقول إنه كان ثملاً جدّاً بسبب الويسكي، لكنه لم يكن عدائياً،

ولا يتذكّر سوى أنه أفاق في غرفة صغيرة وهو ممدّد على الأرض. ويبدو أنه تقيّأ كثيراً حتّى خرج الدم من جوفه. الحارسان كانا قد حجزاه في غرفة تابعة لهما طوال الليل. في نهار اليوم التالي، ذهب الزهيري إلى الطبيب، وكانت حالته سيّئة، ومكث في المستشفى. يعتقد الزهيري أنه معتاد على الشرب ومرّات قليلة كان يتقيّأ وينتهي الأمر. لكنه كان يشعر بدوخة وبألم قوي في معدته، وكان يعتقد أن الحارسَين تعاملا معه بقسوة مبالغ فيها، وقد أساءا استخدام سلطتهما، وبأنه كان بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى في تلك الليلة بدل حجزه في الغرفة على أرض باردة طوال الليل. أخبرتُهُ بضرورة تقديم شكوى إلى مكتب الخدمات أو حتّى للشرطة، إن كان يعتقد أنه قد تعرّض للتمييز العنصري. ذهبتُ للدردشة مع الحارسَين حول ما حدث للزهيري. فبدا عليهما الانزعاج الواضح، وقال أحدهم بأنني أتدخّل بأمور لا تعنيني، وطلبا منّي عدم القدوم إلى المجمّع السكني، فأنا لا أعمل هنا كمترجم بصورة رسمية.

اقترحتُ على ماركو أن نقوم بحملة للتوعية بحقوق اللاجئين القانونية. اتّفق معي ماركو، وقال إنها من أكثر المشكلات شيوعاً، عدم إبلاغ اللاجئين والمهاجرين عن حالات التمييز العنصري وجرائم الكراهية. وأخبرني ماركو عن النقص الحادّ في الإحصائيات الدقيقة حول جرائم الكراهية، فأغلب الذين يتعرّضون للتمييز العنصري لا يُبلّغون الشرطة. في آخر إحصائية عن الموضوع، وجد أن 80 بالمئة من حالات التمييز

العنصرية لم يُبلَّغ عنها. أُجري استطلاع خاصٌ عن الأسباب. فكانت النتيجة بأن أغلب الأجانب لا يثقون بالشرطة، فهم لا يأخذون التبليغات على محمل الجِدّ.

كانت هناك مواقف طريفة عديدة، وأخرى محزنة في أثناء الترجمة. في أحد الأيّام، ذهبتُ مع أُمٍّ وابنتها للترجمة في المركز الصحّي. وحين صرنا في غرفة الطبيب، امتنعت المرأة عن الكلام، وكانت محرجة جدًّا! لم يفهم الطبيب المشكلة. ثمَّ فهمتُ أنا من ابنتها، بأنها تُفضِّل أن يتمَّ فحصها من قبَل طبيبة، وأن يكون المترجِم امرأة. تفهَّم الطبيب رغبتها، وقام بتحويلها إلى طبيبة. لكن، بقيت مشكلة الحصول على مترجمة. توصَّلنا إلى حلٍّ، اقترحتهُ البنت، أن تشرح لي هي المشكلة، من دون حضور أُمِّها، ثمَّ أترجم بدوري إلى الطبيبة. بقيت الأُمُّ تنتظر خارج الغرفة، بينما أفْهَمنا أنا وبنتها الطبيبة علَّة الأُمِّ. ثمَّ دخلت الأُمُّ، وخرجتُ أنا، وبقيت البنت في الغرفة. ثمَّ خرجت الأُمُّ، ودخلتُ أنا لأُترجم ما قالتهُ الأُمُّ على لسان بنتها. بقينا على هذا الحال، إلى أن حُلَّت مشكلة عضو الأُمِّ التناسلي، الذي كان يعاني من حكَّة، حيث أرسلتها الطبيبة إلى المختبر لإجراء بعض الفحوصات. كانت إحدى الممرِّضات منزعجة من عملية الترجمة المعقَّدة. قالت لي قبل أن أغادر، عليكَ أن تشرح لهما بأن المرأة في الشَّمال لا تعيش في القرون الوسطى. قلتُ للممرِّضة، لا داعي للانزعاج، بقليل من الصبر والتفهُّم، يمكن أن تتحسَّن الأمور.

بعد انتهاء قضية ترجمة مشكلة (ما بين الساقَين)

مثلما كانت البنت الخجولة تصف لي كسَ أمِّها، ذهبتُ إلى المقهى الذي تعمل فيه لاورا. في الطريق، شاهدتُ دورية راجلة لجماعة محاربي الشَّمَال العنصرية. كانوا يرتدون جميعاً سترات جِلْدِيَّة سوداء، مطبوع عليها صورة وحش أو ما شابه ذلك. اقتربتْ منهم سيَّارة شرطة. تبادل الشرطيان في السيَّارة مع المحاربين بضع كلمات وابتسامات عريضة، ثمَّ واصلت دورية الشرطة طريقها. كان المقهى خالياً من الزبائن، وكانت لاورا ترتِّب بعض الطاولات وهي تتراقص على أنغام أغنيَّة. رحَّبت بي، وسألتني عن أحوالي. أخبرتُها أن أموري تسير على ما يرام حتَّى الآن! طلبتُ قهوة بالحليب وكأس ماء، وسألتُها عن الصورة المطبوعة على سترات المحاربين. قالت إن هؤلاء الأغبياء الشياطين يتَّخذون من أودين إله الحرب في أساطير الشَّمَال رمزاً لهم. إنهم مجرَّد حمقى، لا عمل لهم سوى كراهية الأجانب والمِثْلِيِّين والنساء. وإن لم يعثروا على أحد لكراهيته، سيعضُّون بعضهم بعضاً مثل حيوانات متوحِّشة! دخل ثلاثة شبَّان إلى المقهى، فذهبت لاورا لتلبية طلباتهم. رمقني أحدهم بنظرة احتقار. جلسوا في زاوية المقهى، وفتح كلُّ واحد منهم لابتوبه الخاصَّ، وراحوا يتناقشون حول مسألة ما. أخفضت لاورا صوت الموسيقى، لكنها لم تتوقَّف عن التمايل والرقص مع نفسها. بقيتُ أراقب حركاتها بين الحين والآخر، وأنا أدوِّن بعض الملاحظات عن عملي كمترجم، وهموم اللاجئين، ومشاهد متفرِّقة من حكايتهم. كانت لاورا نقيض الصورة النمطية لأهل

الشَّمَال الذين يبدون في بعض الأحيان، وبطريقة ساحرة بالنسبة إليّ، كتماثيل، بُثَّت الروح فيها صدفة. لاورا كانت مرحة، وصوتها واضح، وحركة جسدها المنفعلة والنشيطة تشي بأن عظامها نمت على شاطئ بحر أسفل شمس دافئة، ولم تتآكل عفويَّتها بسبب الظلام، ولم يجرح البرد القارس روحها، وكانت نظرتها عميقة وساحرة.

اتَّصل بي ماركو، وذكَّرني بموعد عرض مسرحية صديقته لافا. كنتُ قد نسيتُ الأمر في غمرة انشغالي بأمور الترجمة. سألتُ ماركو إن كان هناك متطوِّع جديد لمبادرة (العشاء). قال: نعم، لدينا مضيفة، اسمها كاترينا، سنتحدَّث في التفاصيل حين نلتقي!

دوَّنتُ بعض الملاحظات عن حالة سامي. كان أكثر مَنْ تعاطفتُ معه في مخيَّم اللجوء، وتمنَّيتُ لو أنني أتمكَّن من تقديم أيِّ مساعدة له. كان سامي في التاسعة عشرة من عُمُره. قليل الكلام، قليل الشكوى، ولم تكن له مطالب كثيرة. كان مهتمًّا فقط بالسؤال عن النظام الدراسي في الشَّمَال. قَتَلَت طائرة أمريكية من دون طيَّار أمَّه وأباه وأخته الصغيرة حين كان في الثالثة عشرة. كانت العائلة عائدة إلى البيت من حفلة عرس أحد الأقارب. قُصف فجأة أحد البيوت. قُتلت أخته وأبوه فور حدوث الانفجار، لكنه شاهد أمَّه تحتضر ببطء، وقد خرجت أمعاؤها على الرصيف. لم يكن أحداً راغباً في تقديم مساعدة فورية لسامي وأمِّه. فقد تكرَّر الطائرة قصفها من جديد، ففي العادة يعتمد الأمريكان طريقة الضربات

المزدوجة. كان هناك اجتماع لقادة المقاومة الإسلامية في ذلك البيت، حين مزّت العائلة صدفة من أمامه. انتهى سامي في بيت خاله، يتيماً، بيد مبتورة، وآثار الشظايا تملأ ظهره. لم تكن زوجة الخال مرحّبة كثيرا بفكرة تبنّي الولد. وتجنُّباً لتفاقم المشكلات أخذه الخال إلى دار الأيتام. كانت البلاد قد دخلت دوّامة الحرب الأهلية. كبر سامي في الدار، والذي كانت خدماته وإدارته سيّئة. هرب الولد من دار الأيتام، وعاش متسكّعاً مع أطفال الشوارع. سُجن حين بلغ الخامسة عشرة في إصلاحية الأحداث، بسبب سرقة درّاجة نارية. بعد خروجه من السجن، قرّر الهروب من البلاد. وصل إلى الشَّمَال، كحال بقية اللاجئين عبر رحلة طويلة وقاسية. كان سامي مولَعاً بألعاب الفيديو. وأخبرني أن حُلمه هو الحصول على أوراق الإقامة، لكي يدرس تصميم ألعاب الفيديو، خاصَّة أن الشَّمَال بارع في التِّقْنِيَّات وتصميم الألعاب. قال لي ذات مرّة ونحن نتمشَّى في الغابة، بأنه يتمنَّى لو يعرف أسماء الأشجار والنباتات والصخور كلَّها. أخبرتُهُ عن أسماء بعض الأشجار التي أعرفها. بعد أسبوع، اشتريتُ له كتاباً مفصَّلاً عن كائنات الغابة النباتية. ورحنا نلتقي بين الحين والآخر، لأترجم له بعض مقاطع الكتاب.

أعجبتني حوارات المسرحية الذكية، وهدوء التمثيل وبساطته. مقدّم برنامج حواري في إذاعة محلّية هو الشخصية الرئيسة والوحيدة على خشبة المسرح. أمّا جمهوره (المستمعون) فكانوا يظهرون في شاشة وسط المسرح في أثناء اتّصالهم في البرنامج الذي يُبثُّ مباشرة على الهواء. يختار المستمتعين قضايا عامّة لإبداء آرائهم حولها. التغيُّر المناخي، الأحزاب السياسية، الاقتصاد، اللاجئين، البطالة، وأمور أخرى. لا توجد الكثير من الأحداث، تشكّل الحوارات بين المستمعين ومقدّم البرنامج جوهر العمل. يتمتّع المذيع بروح الدعابة، ويتناول المواضيع الجادّة، بسخرية ومرح وذكاء. نشاهد أحد المتّصلين على مقعد المرحاض، وفي يده زجاجة بيرة، يتّهم السياسيّين في العالَم بتخريب الأرض، بينما نسمع صوت طفل يبكي في خلفية المتّصل. امرأة تتحدّث وهي تقود سيّارتها من خلال السبيكر عن الحجاب والمرأة. يحاول المقدّم أن ينبّه المتّصلة عن بعض الكلمات العنصرية، غير المسموح استخدامها في برنامجه. ينتبه المقدّم أن المرأة تقود السيّارة، فيسأل عن وجهتها. تقول المرأة إنها ذاهبة لزيارة أُمّها التي تحتضر في المستشفى، وهي لم ترها منذ عامَين. تتلألأ الدموع في عينَي المرأة، تمسح دموعها، ثمّ تقول بصوت متهدّج، أن الحجاب هو إهانة لمشاعر المرأة والإنسانية. أثارتني شخصية رجل عجوز من أصول يهودية، يجلس في حديقة منزله وهو يقشّر برتقالة، ويتحدّث للمقدّم عن تاريخ اللاجئين اليهود في مدينة سولولاند. ومن الواضح

أنه يتحدَّث بالعموميات، ويريد التذكير بأنانية الإنسان، وكان يحثُّ، وبإصرار، على التعاطف مع اللاجئين الجدد في مُدُن الشَّمَال وبلدانه. يقول العجوز، إن اللاجئين اليهود كانوا قد وصلوا في ثلاثينيات القرن الماضي إلى سولولاند. كانت أوضاعهم سيّئة جدّاً، ولم تكن تُقدَّم لهم أيّ مساعدة من قبَل الحكومة. وكانت الجمعيات اليهودية هي التي تحاول أن تعينهم على مشقَّة الحياة. بعد عام 1941 ساءت أحوالهم أكثر. نُقلوا وعُزلوا في الريف، واستُخدم بعضهم للقيام بأعمال شاقَّة. وفي إحدى الشهادات المدوَّنة، يقول أحد اللاجئين اليهود، إنهم كانوا يُجبَرون على العمل حتَّى تدمى أصابعهم. ثمَّ عُزلوا لاحقاً في مخيَّمات خاصَّة. وكانت مشاعر الكراهية والتخوين حاضرة بقوَّة من قبَل الأهالي وأجهزة الشرطة التي كانت تحقِّق باستمرار معهم. وقد سُلِّم بعض اللاجئين إلى الغستابو، فأُعدم بعضهم، واختفى آخرون.

من الواضح أن لافا مؤلِّفة المسرحية ومخرجتها، تتحدَّث عن العلاقة الشائكة بين هموم الإنسان الشخصية وهموم العالَم، وفي كثير من المرَّات أفكارنا هي مجرَّد أوهام ومسلَّمات نُغربلها عبر عواطفنا، لنصدر أحكاماً عشوائية. وربَّما كان فريق العمل يتطرَّق إلى الفكرة المعروفة، وللتذكير: تحميل الآخرين لمشكلاتنا الإنسانية هي الطريقة الأسهل لإخفاء جهلنا وإخفاقنا الشخصيَّين. هكذا كانت، على الأقلّ، قراءتي الشخصية للمسرحية. يتواصل عرض المفارقات الحياتية والإنسانية عبر اتِّصال المستمعين. كانت مشكلة المقدِّم الشخصية

تعتمد على صدمة عاطفية معروفة، يكرّرها الناس في الحياة والأفلام. كان المقدّم غارقاً في الكحول. خانتهُ صديقته مع زميل له، فتحطّمت الطمأنينة في داخله، ونبتت في أعماقه أشواك المرارة. تنتهي المسرحية بمشهد كوميدي يتحوّل فجأة إلى مأساة. المقدّم سكران جدّاً، وهناك متّصل يتحدّث عن ثقافة اللاجئين، والتي يسمّيها ثقافة الاغتصاب. يبدو أن المتّصل واثق من كلّ ما يقوله. يسأله المقدّم إن كان قد سافر عبر العالَم، واطّلع على ثقافاته وعاداته وتقاليده. يقول الرجل إنه لم يغادر في حياته المدينة التي وُلد بها. يسأله المقدّم عن الكُتب التي قرأها حول الموضوع. يردُّ المتّصل، بأنه شاهد فيلماً وثائقياً في قناة أمريكية شهيرة، تتحدّث عن الاغتصاب في المجتمعات الشرقية، وبأن الفيلم قدّم حقائق وأدلّة وشهادات، على أن دِينهم الشيطاني، يعلّمهم أصناف الشرور كلّها. يسقط المقدّم من على كرسيّه مُصاباً بالجلطة الدماغية، يدخل المخرج الإذاعي وأحد مساعديه، في محاولة لإسعاف المقدّم. بينما نشاهد المتّصل في الشاشة وهو يواصل هجومه على ثقافة الكراهية الشرقية. يحلُّ الظلام، يختفي الممثّلون، ويبقى الرجل المتّصل في الشاشة، يواصل كلامه من الغابة، وفي يده منشار كهربائي، ثمّ ينتبه إلى انقطاع الاتّصال. يُغلق هاتفه، ويبدأ بقَطع شجرة، ثمّ يتعالى صوت المنشار في ظلام المسرح.

صفّق الجمهور، وخرج إلى البار المُلحق ببناية المسرح.

جلست برفقة ماركو ولاورا مع فريق عمل المسرحية.

كانت لافا مخرجة العمل سعيدة بإنجاز العرض الافتتاحي. فتحوا زجاجة شمبانيا، وراحوا يحتفلون. شربتُ كاساً واحدة معهم، لكي أقطع الطريق أمام الفضول البديهي (لا تشرب بسبب التزامك الدّيني؟!) لو كانت بشرتك بيضاء، فأكيد أنتَ لا تشرب لأسباب صحّية أو ببساطة إنك لا تحبُّ الكحول. المسألة تشبه لون مرتكبي الجرائم وخلفياتهم. من غير أصحاب البشرة البيضاء، كلُّ مَنْ يقوم بجريمة ضدَّ أناس أبرياء هو إرهابي، أمّا مجرمو (البيض)، فهم مجرَّد مرضى نفسيّين، دفعتهم ظروفهم العائلية المعقَّدة لارتكاب مجازرهم. انتبهتُ لاورا لإرباكي وخجلي! في الحقيقة، كنتُ قد تلقَّيتُ دفعة كبيرة من الابتسامات من قبَل غالبية الجمهور الذي بدأ سُكره في البار. وأمام هذا الكمّ الهائل من الابتسامات يصبح التمييز صعباً بين رسالة ابتسامة وأخرى: مودَّة وترحيب أم شفقة أم سخرية أو ربَّما عدائية ماكرة! في التواليت، سألني رجل يرتدي بدلة رسمية، ونحن واقفان للتبوُّل، إن كنتُ فهمتُ شيئاً من المسرحية؟ فهمتُ أنه لا يسأل عن المعاني الخفية أو المباشرة في العمل، بل يقصد مدى معرفتي في اللغة الشَّمَالية. أخبرتُهُ أنني من العاصمة، وأنني أجيد اللغة، وأنني مواطن شَمَالي. ضحك قائلاً: (طبعاً، أنتَ مواطن شَمَالي!) غسلتُ يَدَيَّ، وتركتُهُ واقفاً، يصارع من أجل إخراج أوّل قطرة بول من زبّه، وبدا واضحاً أن التبوُّل كان عَصِيّاً عليه. عدتُ إلى البار، وعاد الجميع يبتسم في وجهي، وكأن حيواناً أليفاً دخل فجأة بالخطأ

إلى المكان غير المناسب. خرجتُ للتدخين، فلحقتني لاورا. (كلُّ شيء تمام؟)، سألتْ. (آه، نعم، نعم!) قلتُ. ثمَّ حاولتُ تبرير ارتباكي حين ذكرتُ لها بأنني غير اجتماعي، وأبديتُ ملاحظة عن مدينة سولولاند، وكيف تبدو بأنها غير معتادة على الأجانب. أخبرتُها عن رشقات الابتسامات البلهاء التي أتلقَّاها. قالت لاورا: (صحيح إن مدينتنا صغيرة وغير معتادة على الغرباء، لكنْ، أعتقد أن أغلب جمهور المسرح يحاول أن يكون لطيفاً معكَ، وكما تعرف لا يأتي اللاجئون والمهاجرون إلى المسرح أو المناسبات الفنيَّة الأخرى.)

ـ (صحيح! ربّما أبالغ بسبب خجلي الشخصي. أو لا أدري إن كان أغلبنا، نحن اللاجئين، نعاني من عقدة الاضطهاد .. لكنْ، لا أعتقد أن الغضب أو الخوف هو مَنْ يحرِّك أفكاري .. ربّما .. ما أعرفه هو أنني ممتنٌّ لحياتي هنا في الشَّمال، وأعتقد أن العلاقات الإنسانية بحاجة إلى جهد كبير وطُرُق تفكير جديدة لتحسينها .. لكني أحبُّ التفكير في العلاقات بهدوء .. في الحقيقة حتَّى في العاصمة هناك أماكن عامَّة، يشعر زُوَّراها بالاستغراب، ومرَّات بالاستهجان حين يدخلها شخص غير أبيض .. هناك نظرات وابتسامات وتعليقات في بعض الأحيان، مفادها، ما الذي يفعله - هذا في متاحفنا ومسارحنا ومطاعمنا الفاخرة ومعارضنا الفنيَّة. المكان المفترَض أن نلتقي فيه هو الميترو أو المطاعم أو في نشرات الأخبار!)

قالت لاورا إنها تتفهَّمني، وبأن الأمور ستتغيَّر مع الوقت، وإنها تعتقد أن الإنسان، بشكل عامٍّ، هو تجربة مخفقة

على هذه الأرض، فهو، بطبيعته، مُدمِّر، ولا يتناسق مع الطبيعة، بسبب أنانيَّته ووعيه بأنه مجرَّد ضرطة زائلة في هذه الحياة! أعجبتني طريقة كلامها، فابتسمتُ. فقالت: (وماذا تعني ابتسامتكَ هذه؟!). حاولتُ التوضيح، لكنها قاطعتني قائلة: (أمزح معكَ!! اسمع، هناك دي جي رائع اليوم في النايت كلوب .. لنذهب هناك، ونترك جمهور المسرح المتكلِّف، والذي تزعجكَ ابتساماته!). في طريقنا إلى النايت كلوب، شاهدنا سيَّارة شرطة متوقِّفة، وقربها ثلاثة لاجئين. سألتُ لاورا إن كان بالإمكان مساعدتي في إيجاد سكن في المدينة، فالفندق مُكلِّف! قالت لاورا: (طبعاً، أكيد .. سنعود بعد النايت كلوب إلى سكنكَ الجديد .. ما دمتُ أنا معكَ .. اطمئنَّ، مترجمنا القلق والحسَّاس جدَّاً!). ثمَّ خطفتِ السيجارة من بين شفتَي قائلة: (بالمناسبة، أنا مِثْلِيَّة!)، وراحت تنفث الدخان بطريقة مَنْ لا يعرف التدخين.

فتحتُ عينَيَّ، فكان وجه لاورا النائم أمامي. رحتُ أتأمَّل ملامحها، ففتحتْ عينَيْها. (صباح الخير) قالت. كانت رائحة فمها قوية ومزعجة. لم أقلْ شيئاً، فابتسمتْ قائلة: (هل فقدتَ القدرة على الكلام؟!) قلتُ: (أكيد أن رائحة فمي مع السجائر كلِّها التي دخَّنتُها والكحول .. ستكون أكثر كارثية من رائحة فمكِ). (فوك يو) قالت، وأزاحت الشرشف، متَّجهة إلى الحمَّام. كانت تنام بلباسها الداخلي الأسود، وتيشيرت أخضر مرسوم عليه صورة بومة. جلستُ على حافَّة السرير متأمِّلاً المكان. إنه استوديو كبير ونظيف ومرتَّب وفاخر جدَّاً.

خرجت لاورا من الحمَّام وهي تلفُّ جسدها بالمنشفة. (أدِرْ وجهَكَ!) قالت وراحت تُغيِّر ملابسها: (هل يعجبك سكنك الجديد؟). (ماذا تقصدين؟). فتحت لاورا الثلَّاجة، وصبَّت كأسَين من المياه الغازية. كنتُ أشعر بصداع رهيب. قالت: (ما أعنيه أنكَ بحاجة إلى سكن .. وهذا سيكون سكنك ... أعرف أنه متواضع). (أرجوكِ، لا تسخري منِّي .. متواضع؟!)، ثمَّ أضفتُ: (آسف، لكن الاستوديو يبدو أنه لمليونير، وليس لرسَّامة شابَّة، تعمل في مقهى في مدينة سولولاند.) (صحيح؟!) قالت لاورا. ثمَّ أخذت تجمع بعض اللوحات، وتضعها في مخزن ملحَق بالاستوديو، وكان واضحاً أنها لا تريدني أن أراها. قالت: (هذا استوديو أبي. توفِّي قبل سنتَين بسرطان الرئة. كان أبي رسَّاماً مشهوراً، وحصل على ثروة كبيرة من لوحاته ... ما رأيكَ أن أطلب البيتزا؟). (شكراً، رائع!) قلتُ وأنا أدخل الحمَّام.

رحنا نأكل البيتزا، ونشرب الكثير من الكوكاكولا. قلتُ: (يبدو أن أباكَ كان عبقرياً!)

أطلقت لاورا ضحكة مسرحية قصيرة: (تعتقد أن الفنَّانين الأثرياء هم عباقرة، أنتَ لا تعرف ما هي حقيقة سوق الفنِّ! اللوحات على الجدار هي لأبي.) كانت لوحات تجريدية. مجرَّد ألوان حادَّة بخطوط متقاطعة، من تلك اللوحات التي تُشعِر بأن أيَّ شخص يمكنه أن يرسمها، وبأننا نحن الناس العاديِّين لا نفهم قيمتها الحقيقة. ثمَّ استرسلت لاورا في الكلام: (كان أبي طيزاً كبيرة، وسكِّيراً، ومدخِّناً شرهاً. لم يتصالح أبداً مع فكرة أن

ابنته مِثلِيَّة، رغم أنه كان يتظاهر باللامبالاة، وبأنه فنّان صاحب فكر حُرّ! حين كان أبي فنّاناً مغموراً لم تكن تعجبه فكرة بيع الفنّان لِلَوحاته، لهذا حين كان يشارك في المعارض الفنّيَّة كان يضع سعراً مبالَغاً به، لكيلا يجرؤ أحد على التفكير بشراء لوحاته. مَنْ سيشتري لوحات تجريدية لفنّان غير معروف بأسعار خيالية! ويبدو أنه دائماً هناك أغبياء في هذا العالَم، مهمَّتهم تحويل التفاهات إلى أشياء لها قيمة. هكذا هو سوق الفنّ! لفت موضوع أسعاره الخيالية بعض الأغنياء، فالناس بدأت تسخر وتتندَّر على أسعار لوحاته في المناسبات كلّها، فراح بعض الأثرياء يشترونها كتَحَدٍّ له. رفع أبي الأسعار عناداً بهم. فأصرُّوا على شراء لوحاته مهما كان الثمن. كانت بمثابة لعبة، أبي يقول، بأنه لن يمكنكم شراء فنّي! بينما الأثرياء يذكّرونه بأن نقودهم يمكنها أن تشتري كلّ شيء. لعبة الأسعار هذه انتشرت في الصحافة ووسائل الإعلام، وجلبت الاهتمام والفضول بأعماله الفنّيَّة، من قبَل الأثرياء وحتّى من قبَل الناس غير المهتمّين أصلاً بالفنّ. بدأت القصَّة تنتشر في بقية أرجاء العالَم. صار أبي نجماً. لم يصمد أمام طوفان الشهرة، استسلم، وراحت لوحاته تُباع وتُشترى بأسعار خيالية، وواصل أبي مضاعفة ثروته. هذه هي القصَّة، عزيزي المترجم! أكيد ستقول كيف لبنت فنّان ثري أن تعمل نادلة في مقهى .. أوّلاً أنا صاحبة المقهى، وافتتحتُهُ في ذكرى يوم مولد أخي الذي مات غرقاً في سنّ المراهقة. نقدّم في المقهى معجّنات، تشتهر بها سولولاند فقط، يجب أن تذوقها!)

أعطتني لاورا مفتاح الاستوديو، وشدّدت على أن أقوم بتدوير النفايات. كلُّ شيء يجب أن يكون في مكانه المخصّص. الورق، مخلّفات الطعام، البلاستيك، الكارتون، علب الصفيح، الزجاج، البطّاريات، علب الأدوية الفارغة.

حزمتُ حقائبي، وجئتُ للعيش في الاستوديو. أخبرتني لاورا بأنه يمكننا أن نتّفق على مبلغ الإيجار لاحقاً. شعرتُ بالارتياح، وبنوع من الاستقرار بعد حصولي على السكن. صرتُ أكثر نشاطاً في الاهتمام بهموم اللاجئين، ورحتُ أكثّف جهودي بتوعيتهم بحقوقهم القانونية. اكتشفتُ أن أغلبهم لم يطلب المعونة من مكتب المحامين الذي يقدّم خدمات مجّانية لِلّاجئين. وما إن نبّهتهم حول حقوقهم، حتّى راحوا لا يفارقون مكتب الخدمات الاجتماعية للمطالبة بلقاء محامٍ. تفاجأ موظّفو الخدمة الاجتماعية بهجوم اللاجئين المفاجئ للمطالبة بحقوقهم. وشى بي أحد اللاجئين للموظّفين، وادّعى بأنني أحرّضهم على مكتب الخدمات وإدارة المخيّم، وادّعى بأنني طالبتُ اللاجئين بالشكوى للإعلام من سوء الإدارة والعنصرية. تكاتف مكتب الخدمات الاجتماعية مع الحارسَين، وطلبا منّي عدم التردُّد على المجمّع السكني لِلّاجئين، وبأنهم سيتّصلون بي حين يحتاجون خدماتي.

عرفتُ هوية الواشي لاحقاً! مرّة كنّا مجتمعين في شُقّة الشرطي البخيل. كان هناك ضيوف من الشُّقق الأخرى. كنّا نتحدّث بأمور عامّة، وقادنا النقاش إلى موضوع حرّيّة المرأة ومكانتها وقوّتها هنا في الشّمال، مقارنة بأوضاع النساء المزرية في الشرق. كانت رائحة

الذكورية تفوح بقوّة من أفكار بعضهم. كان بعض اللاجئين يعتقدون بأن نساءنا ليس بالضرورة أن يكنَّ منفتحات إلى هذا الحَدّ مثل نساء الشَّمَال. أزعجتني هذه الفكرة، ورحتُ أسهب في الحديث عن الموضوع، وأهاجم العقلية العشائرية والذكورية في بلادنا. تساءلتُ عن سبب هذا الخوف كلّه من حرّيَّة المرأة. قلتُ: (أنا لا أفهم ماهي المشكلة مثلاً في أن تشاركنا النساء المقاهي، وتلعبنَ الدومينو معنا؟!.. وما هي المشكلة في أن تكون لهنَّ علاقات في العلن، حبيب أو صديق خارج مؤسَّسة الزواج؟!) اعترض لاجئ، كان يعمل خبَّازاً في البلاد، اسمه مجيد. قال بنبرة حادَّة: (وهل تعتقد أن المرأة تحتاج إلى لعب الدومينو في المقهى؟! يجب أن نوفِّر للمرأة الحياة الكريمة أوَّلاً في بلادنا). (ما الذي تعنيه الحياة الكريمة؟! ولماذا أنتَ تقرِّر ما تحتاجه المرأة؟! لماذا لا تسأل أُختكَ مثلاً، إن كانت تريد الخروج للمقهى مثلكَ، ولنرَ ما ستقوله؟!) يبدو أن مجيد انزعج من ذِكْري أُخته كمثال. وقف الخبَّاز غاضباً، وقال بصوت عدائي مرتجف: (لا تأتِ على ذِكْر أُختي، فهمتَ؟! نحن مجتمع محافظ، ولدينا عاداتنا وتقاليدنا، وليس علينا أن نتحوَّل إلى مسوخ، بمجرَّد أننا لجأنا هنا إلى الشَّمَال!) ثمَّ خرج غاضباً، وصفق الباب بقوَّة خلفه. عمَّت فوضى النقاش في الشُّقَّة. وتراشق اللاجئون فيما بينهم الأسئلة والأجوبة. نعم، يجب تحرير المرأة في بلادنا لتحقيق السلام. الشَّمَال مؤسَّس على الانحلال الأخلاقي. لماذا نربط الاخلاق بالمرأة؟! ما هي الأخلاق أصلاً؟! نريد أن

نستعبد جسد المرأة، بينما نعطي الحقوق كلّها للرجال.
هل الدّين هو المشكلة؟!

جاء ماركو لزيارتي في الاستوديو بعد أن سمع بموضوع منعي من الذهاب إلى المجمّع السكني. تأسّف ماركو على ما حدث، وقال إن لديه صديقاً في دائرة الهجرة، وبأنه سيتحدّث معه! أخبرتُهُ بأنني ما زلتُ أتواصل مع اللاجئين عبر الهاتف، وألتقي بهم في مركز المدينة، يجلبون لي البريد ومشكلاتهم، أترجم لهم، وأقدّم لهم النصائح والاقتراحات. ثمّ أخبرني ماركو بأنه لن يكون بإمكانه حضور دعوة (العشاء) من قبل مضيفتنا الجديدة كاترينا، فهو مضطرٌ للسفر إلى العاصمة لحضور حفل زفاف أخيه. وقال إنه يعتمد عليّ، وأضاف إنني سأتصرّف أفضل منه، فأنا أعرف لغة الطرفَين وثقافتهما. مضيفتنا كاترينا، تعمل طبيبة تخدير في مستشفى المدينة، لكنها في إجازة صحّية حالياً. تعيش كاترينا في بيت منعزل وسط الغابة. يبعد البيت عن المدينة 30 دقيقة في السيّارة. أبديتُ استعدادي ورغبتي للمشاركة في دعوة العشاء. سألتُ ماركو عن بعض التفاصيل. كم ضيفاً نختار؟، وما هي طريقة اختيار الضيوف؟! قال ماركو إن كاترينا أخبرتْهُ، بأنه ليس هناك من مشكلة في عدد الضيوف. اتّفقنا على أن أختار بنفسي ثلاثة ضيوف من اللاجئين. قلتُ له بأنني سأراعي فكرة التنوّع في طريقة تفكير اللاجئين، لكي نسمح للمضيف بمعرفة الحقيقة البسيطة التي تقول بأن اللاجئين ليسوا شخصاً واحداً، يحمل الأفكار والهموم والتوجهات الفكرية نفسها.

اتّفق معي ماركو، وأوصى بأن نهتمَّ بأمور التنظيف بعد العشاء، وأضاف أنه بإمكاني أن أتّصل به في أيّ وقت إن كنتُ بحاجة للمساعدة. سألتُ إن كان الأمر سيبدو ثقيلاً ومزعِجاً، مجموعة من الرجال الغرباء في بيت امرأة وحيدة، تعيش عُزلة في غابة. قال ماركو إنه لمَّح لمضيفتنا كاترينا عن هذا الموضوع، و أخبرتهُ بأنها قد تدعو صديقة لمشاركتهم الأُمسيَّة.

في المساء كنتُ أعدُّ نوعَين من الكبَّة للعشاء، واحدة من البرغل، وأخرى من الرزّ. فكّرتُ أن أدعو لاورا لمشاركتي الطعام! لكني تراجعتُ عن الفكرة، حين أخذت مخيّلتي ترسم مشاهد جنسية مع لاورا. لا أدري إن كان لها تجارب مع الرجال. تخيُّلاتي المتسارعة حول الرغبة في ممارسة الجنس مع لاورا، دفعتني للتطفُّل على لوحاتها التي خبَّأتها في المخزن. كانت أغلب لوحاتها هي لرجال بوجوه أطفال مُبالَغ في ملامحها. كانت اللوحات تبدو قاسية ومخيفة إلى حَدٍّ ما. أكثر لوحة أعجبتني هي لرجل نائم فوق سرير، بوجه طفل وجسد رجل أربعيني. قرب السرير فتاة شابَّة مستلقية على الأرضية، وتبدو كشخصية كارتونية في فيلم. تحدَّق الفتاة في السقف بابتسامة شيطانية.

اجتمعنا أنا وعمر وسامي وكاروان لمناقشة نوع الطعام الذي سنطبخه لمضيفتنا، كاترينا. كنتُ مهتمًّا جدًّا بحضور سامي. لم يكن، في الحقيقة، راغباً في حضور دعوة العشاء، لكنه وافق أخيراً بسبب إصراري ورغبتي في خروجه من عزلة المخيَّم. اقترح عمر بأن نطبخ الرزَّ مع ثلاثة أنواع من المرق؛ الباذنجان، والباميا، والفاصوليا. أشهر أعلام مطبخنا المحلّي. اعترض كاروان، وقال بأن الشَّمَاليِّين، أغلبهم يشربون النبيذ مع الطعام، وسيكون الرزُّ والمرق أكلة ثقيلة على المعدة، واقترح الدولمة! سخر منه عمر قائلاً: (وهل الدولمة أكلة خفيفة مع الشراب؟!). (وهل شربتَ يوماً في حياتك زجاجة بيرة؟) سأله كاروان. (أستغفر الله، أنا لا أُغضِب ربِّي!) ردَّ عمر. ثمَّ أضاف كاروان قائلاً: (بأن الدولمة الحقيقة يحب أن تكون من ورق العنب). اعترض عمر مرَّة أخرى: (أفهم أنكم تفضِّلون في مناطقكم ورق العنب، لكن السلق هو روح الدولمة الحقيقية!). خرج أخيراً صوت سامي ضعيفاً وخجولاً: (لا السلق ولا ورق العنب متوفِّر في أسواق سولولاند، يمكن الحصول عليهما، فقط، في بعض الأسواق الشرقية في العاصمة. (أخيراً اقترحتُ أنا أن نعمل الدولمة من ورق الملفوف: (رغم أن الأكلة ستفقد هويَّتها، لكن، لا بأس، سأطبخ أنا أيضاً السمك!) ثمَّ ختمتُ اقتراحي بنبرة مازحة: (إن لم يعجبها أكلنا الشرقي العظيم، فربَّما تُعجبها طريقتنا العظيمة في طبخ سمك الشَّمَال!) ،اتَّصلتُ بكاترينا، وأخبرتُها بأننا سنصل نحو السادسة مساء. قالت إنها ستجهِّز الساونا، وستكون

بانتظارنا! ملأنا صندوق سيَّارتي بالطعام والشراب، وأوصلتُ الضيوف إلى مخيَّم اللجوء. سيأخذون حمَّاماً، ويغيِّرون ملابسهم، وسأمرُّ عليهم بعد ساعتين! عدتُ أنا إلى الاستوديو، حَلَقْتُ لحيتي، وغلَّفتُ هدية كاترينا.

اخترتُ عمر وكاروان لمبادرة (في ضيافة الضيوف)، لأنهما يمثِّلان أكثر نموذجَين متناقضَين شائعَين بين اللاجئين. كاروان غير ملتزم دِينياً، بل هو ناقم على الدِّين الذي شلَّ قدرات مجتمعنا، وخرَّبها، على حَدِّ قوله. أمَّا عمر، وهو في بداية الثلاثين من عُمُره، فكان ملتزماً دِينياً، لكنه ليس متعصِّباً. عمر يميل إلى الصوفية، وهو خطَّاط ماهر. يعتقد عمر أن المشكلة ليست في الدِّين، بل في سلوك بعض المتديِّنين. يحاول كاروان أن يقدِّم نفسه على أنه رجل منفتح ومتفهِّم ومتحرِّر ومغامر أيضاً. يقولون إنه كان ضابطاً برتبة نقيب في الجيش، رغم أنه يُنكر ذلك. كاروان يطالب اللاجئين أن ينسوا ماضيهم المشوَّه، وأن يندمجوا في أنظمة المجتمع الجديد وقِيَمه، لكي يتمكَّنوا من مواصلة حيواتهم بطريقة صحيحة. وشعاره الأزلي، هو مَثَلنا الشعبي القائل (يا غريب، كُن أديب). أمَّا عمر، فشعاره، إلهي هو ملجئي وبيتي وحبيبي. يقول عمر، أكيد علينا أن نشكر ونحترم المجتمع الذي استقبلنا، لكن، لا يعني هذا أن نتبنَّى قِيَمَه وثقافته ودِينه. وهو يستخدم هنا شعار الدِّين المتسامح (لكم دينكم، ولي ديني). أمَّا سامي، بالتأكيد كان تعاطفي الكبير معه، ورغبتي في أن أكون صديقاً وأخاً له، هو الذي دفعني لدعوته، كنتُ أفكِّر أنه بحاجة لفتح نوافذ

جديدة في حياته، لا تطلُّ على كوابيس الماضي.

بعد أن انعطفنا عن الطريق السريع، قدتُ السيَّارة بحذر في الممرَّات غير المعبَّدة والضيِّقة بين صفوف أشجار الصَّنَوْبَر. كانت الغابة مدفونة أسفل الثلوج، لكن السماء كانت صافية. كنتُ قلقاً من كاروان، يبدو أنه ثمل قليلاً، وقد أغرق نفسه بعطر قوي، وهذا ما لا يفهمه أغلب الشَّمَاليِّين، الذين لديهم حساسية تقريباً من كلِّ شيء. بقي سامي صامتاً طوال الطريق، وبين الحين والآخر كان يُخرِج هاتفه لالتقاط صورة من نافذة السيَّارة. كسر عمر حاجز الصمت، وطلب منِّي أن أصف له المجتمع الشَّمَالي! أخذتُ وقتاً للتفكير في إجابة. ثمَّ قلتُ: (اسمع، صديقي عمر، أنا شخصياً لا تعجبني التعميمات والحديث عن مجتمع بأكمله، ليس في حدود طاقتي. دعني أسألكَ مثلاً، كيف تصف لي المجتمع في بلادنا ؟!) (ماكو أطيب منهم، يغضبون بسرعة، ويسامحون بسرعة) قالها عمر بكلِّ يقين وفخر، فضحكنا جميعاً. ما يقوله عمر هو فكرة شائعة عن مجتمعنا، لكنه أكيد مجرَّد تصوُّر عامٍّ وسطحي. واصلتُ أنا كلامي: (أوكي، أصدقائي، أجري قبل أعوام في أحد مراكز البحث في الشَّمَال استطلاع، طُلب فيه من مجموعة كبيرة من الشبَّان وصف مجتمعهم. فلُخِّصت الصفات ببضع كلمات: حسود، صلب، مجتهد، محبّ للطبيعة، هادئ، صادق، كاره للأجانب). عقَّب كاروان: (كاره للأجانب؟ ربَّما قلَّة!). سألتُهُ: (أنتَ تمام؟ تبدْو ثملاً قليلاً؟!). ضحك ساخراً: (لا تقلق، أنا أشرب منذ كنتُ في سنِّ المراهقة!) قلتُ: (لا أدري إن

كان هذا يدعو للطمأنينة أم القلق؟!). فتح سامي النافذة، فدخل هواء بارد ومنعش إلى السيَّارة. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وواصلتُ كلامي: (في الحقيقة الأفكار النمطية تكون قاتلة. كلُّنا نعرف أن أهل الشَّمَال، والغرب بشكل عام يقدِّسون الفردانية. لهذا مثلاً نحن نلومهم، في كثير من الأحيان، لأنهم أسرى الأفكار النمطية حول الغرباء. أقول رغم إيمانهم العميق بالفردانية، لكنهم يعاملون اللاجئين والمهاجرين وكأنهم كتلة بشرية واحدة، تحمل القِيَم والأخلاق والسلوكيات نفسها، وليسوا بشراً أفراداً. صحيح أن الأفكار النمطية تُشعِرنا بالأمان داخل حدود القطيع، لكنها وليدة الكسل والاستسهال والجهل. إنها أشبه بمعلَّبات فكرية جاهزة للأذهان الكسولة. وغالباً ما تكون محتويات هذه المعلَّبات قديمة وفاسدة! الأفكار النمطية تحرمكَ من ميزتكَ كإنسان، يمكنه التفكير باستقلالية، وتقتل روح الإبداع فيكَ، وتجمِّد مخيِّلتكَ. بالنسبة إليَّ، أحاول قدر المستطاع أن أكون متوازناً في علاقتي مع الآخرين والعالَم.) ثمَّ حدَّثتهم عن رغبتي في تأليف كتاب عن موضوع علاقة اللاجئ بالمكان الجديد، عنوانه (الحبُّ الصعب). قال كاروان، يبدو وكأنه عنوان فيلم رومانسي. (أنتَ على حقٍّ!) قلتُ وأنا أركن السيَّارة أمام باب بيت كاترينا.

البيت الخشبي المكوَّن من طابقَين، كان بمساس الحاجة للترميم. كان يبدو شاحباً بسبب طلائه المتآكل، وكانت هُناك ألواح خشبية منزوعة من سقف البيت، والذي يجاوره كوخ صغير مخصَّص لخزن الأخشاب

وتقطيعها، ترقد قربه سيّارة طراز قديم من نوع ساب، غطّاها الثلج، وبدت وكأنها قطعة من الحلوى. كاترينا التي خرجت لاستقبالنا، في منتصف الأربعينيات، شعرها أحمر خفيف. ملامحها الجميلة كانت تبدو وكأنها تطلُّ من خلف زجاج نافذة مضبَّبة، ويبدو أن حياتها لم تكن سهلة ولا مريحة. كان انطباعي الأوَّل أنها لم تكن موفَّقة فيما ترتديه لمثل هذه المناسبة! كانت تحشر نفسها بثوب ضيِّق جدّاً ومثير جنسياً، مكوَّن من قطعة واحدة من الجِلْد الأسود. ويبدو أن الثوب كان يقيِّد حركتها، ويُبرِز ساقَيها بشكل فاضح، وكان ثدياها الضخمان بارزَيْن، و الثوب بالكاد يغطّي حَلَمَتَيْهَا. ما زاد غرابة ثوبها الاحتفالي هو عدم انسجامه مع مظهر البيت الداخلي، والذي كان يشي بأن بضعة أشخاص كحوليِّين يعيشون فيه، وبأن أحداً لم يفكِّر في تنظيفه وترتيبه منذ وقت طويل، كانت علب البيرة الفارغة وزجاجات الكحول وبقايا الطعام في كلِّ مكان.

جلسنا في صالة واسعة مفتوحة على المطبخ. قدَّمتُ الهدية لكاترينا، وشكرتُها على الدعوة. عرفتُ نفسي، وطلبتُ من الأصدقاء أن يُعرِّفوا بأنفسهم، وأخذتُ أترجم لهم. لم تفتح كاترينا هديَّتنا، وتركتُها جانباً. قالت إنها تعاني من حساسية من الهواتف الخلوية، ومن الأفضل إغلاقها. قلتُ وأنا أنظر للبقية (أكيد!) ذهبت هي إلى غرفة مجاورة، وجلبت صندوقاً خشبياً صغيراً، لتجمع هواتفنا، ثُمَّ عادت بالصندوق إلى الغرفة. في أثناء ذلك همس عمر: (أوَّل مرَّة أسمع أن هناك مَنْ يعاني من

حساسية من الهواتف!). أجابه كاروان: (أنتَ تعيش في زمن الديناصورات، عمر .. ألم تسمع بالحساسية التي يسبِّبها الواي فاي والهواتف النقَّالة والحاسوب؟! .. يُسمُّونها الحساسية الكهربائية.)

(هل تشربون العصير؟) سألت كاترينا. ثمَّ أضافت: (أعرف أن دِينكم لا يسمح لكم بشرب الكحول. لكن، أكيد يمكنني أنا أن أشرب؟)

ابتسمنا جميعاً، ولم نتوقَّع مثل هذه البداية النمطية. صرَّح كاروان، بأننا جميعاً نشرب الكحول ما عدا عمر، فهو يخاف أن يُغضِب ربَّه. عقَّب سامي: (لا، أنا أيضاً لا أشرب، لا أُحبُّ طعمه، وليس بسبب تحريمه). لم يكن لدى كاترينا أيُّ فضول عمَّا سنطبخه أو حتَّى عنَّا كأشخاص. كان واضحاً عليها الإرباك والقلق، وكانت تنظر بين الحين والآخر إلى الساعة الجدارية. خمَّنتُ أنها خجولة، وربَّما هي تنتظر وصول صديقتها لمشاركتنا العشاء. وضعنا أغراضنا في المطبخ، وأخبرتُ مضيفتنا بأن تحضير الطعام وطبخه سيستغرق، على الأقلِّ، ساعتَين. قلتُ لها مازحاً، إننا في الشرق نطبخ لساعات طويلة، لكننا نلتهم كلَّ شيء بخمس دقائق. لم تُبدِ أيَّ ردَّة فعل، وحافظت على إيماءة ملامحها المتشنِّجة. قالت، إنها تحتاج المزيد من الحطب للساونا. ذهب عمر لتقطيع الأخشاب، وانشغلنا أنا وسامي في تحضير الطعام، بينما جلس كاروان قرب كاترينا إلى مائدة الطعام، وراحا يحتسيان الكحول، ويحاولان التواصل بالإشارات، وببضع كلمات بالإنكليزية. نبَّهت كاروان

للمرّة الثانية عن طريقته غير المسؤولة في الشرب. بدأ بالويسكي، ثمَّ راح يشارك كاترينا الفودكا، وتطفَّل بين الحين والآخر على زجاجة النبيذ التي كنتُ أشرب منها على مهل. كاروان ملأ المائدة بصحون المازات: فستق، جاجيك، باقلّا، تبُولا، رمّان، حمُّص بطحينة، شامية، لبلبي. طلب منّي أن أترجم له ما تقوله كاترينا. أخبرتُهُ، أنها تسأل إن كانت هذه الصحون كلُّها هي عشاءه؟ وإن ما كان نباتياً؟! ضحك كاروان، وشرح لكاترينا أهمِّيَّة المازات خاصَّة مع الكحول القوي، ثمَّ سألها عن رأيها باللاجئين في المدينة؟! قالت كاترينا ببرود: (الحدود المغلقة هي الحلُّ!) قلتُ لها، هناك مَثَل فرنسي يقول: (ما دام الباب مُغلَقاً، سترحل الشياطين)، وحاولت أن أبني على فكرة المَثَل المُراوِغة بعض تصوُّراتي للتعامل مع الغرباء والتضامن الإنساني، لكنها لم تكن مهتمَّة بما أقوله، وقاطعتني: (سأتفقَّد الساونا) قالت، وانصرفت.

بعد أن مضت ساعة على وجودنا في بيت مضيفتنا، كانت الساونا جاهزة. اقترحتُ على كاترينا أن تدخل هي أوَّلاً، ونحن بعدها. عمر قال إنه لا يريد استخدام الساونا، فاشتعل الجدل من جديد بينه وبين كاروان. الدِّين، القِيَم، والمجتمع الجديد. كان كاروان سكراناً، قال بطريقة ساخرة وغير مهذَّبة لعمر: (أنتم الذين ستستمعون في الآخرة، دعونا نستمتع في دنيانا). (ومَن منعك من الاستمتاع؟!) قال له عمر، وأضاف: (أنتَ تتحدَّث عن الحرِّيَّة الشخصية، وتنتقد الدِّين بسبب ودون سبب، وفي الوقت نفسه، لا تحترم حرِّيَّتي

الشخصية في عدم الشرب ومشاركتك الساونا. هل الكحول والساونا مقياس لهمجيّتك أو تمدُّنك؟!)

فضّلت كاترينا أن ندخل الساونا أوّلاً. بقي عمر في المطبخ، ليضع اللمسات الأخيرة على قِدر الدولمة وصينية السمك في الفرن. احتفظنا أنا وسامي بألبستنا الداخلية بينما تعرّى كاروان بالكامل وهو يبتسم كشيطان، وراح يشرح لنا الإتيكيت الحقيقي لاستخدام الساونا: (أوّلاً الاستحمام وشرب كأسَين من الماء قبل الدخول، ثمَّ تدفئة الجسم داخل الساونا 10 دقائق تقريباً، ثمَّ الاستحمام مرّة أخرى وشرب السوائل المنعِشة قبل الدخول من جديد.) ضحكنا أنا سامي! قلتُ له: (السوائل المنعِشة لا تعني الويسكي الحارق الذي تحتسيه!) كان هناك بابان للساونا، واحد للولج إليها من داخل البيت، وآخر يطلُّ على الفناء الخلفي للبيت، كنّا نستخدمه لشرب السوائل والتدخين والتخفيف من حرارة الساونا.

تفاجأنا بدخول كاترينا عارية (إنْ لم تمانعوا؟) قالت وجلست بيني وبين كاروان على مصطبة الساونا الخشبية. فكّرتُ أن أطلب من سامي وكاروان الخروج، حتّى نتيح لسيّدة البيت بعض الخصوصية. لكن حرجي منعني من الكلام، فنهضتُ من مكاني، وتمنّيتُ لهم ساونا ممتعة. تبعني سامي، فقالت كاترينا: (ألَا تثقون بأنفسكم؟!). قلتُ: (عفواً! ماذا تقصدين؟). ردّت: (أن تكونوا مع امرأة في الساونا! العُري هنا لا علاقة له بالإثارة الجنسية والغَرائز الحيوانية). أزعجتني طريقة

كلامها، وانصرفتُ من دون تعليق. بقي كاروان برفقتها، راح يقهقه بغباء، وسمعناه يصفنا بالمتخلّفين ونحن نغيّر ملابسنا. انضمّنا إلى عمر، الذي قال: (ربع ساعة والأكل يصير جاهز!) فأخذنا أنا وسامي نرتّب المائدة.

حدث كلُّ شيء بسرعة خاطفة وكأنه كابوس. مثل مَنْ يهرول في غابة، ويسقط فجأة في حفرة، وتتكسّر أضلاعه. مثل صبي يطارد فراشة في حقل، فينفجر تحت قدمَيه لغم من حروب الأجداد. مثل عاشقَين يغنّيان سوية، فتَسحق الأُغنيّةَ وسيّارتَهما شاحنةٌ مُحمَّلة بالفولاذ.

سمعنا أوّلاً صياح كاترينا وكاروان قادماً من داخل الساونا. دخلت كاترينا إلى الصالة وهي تلفُّ جسدها بمنشفة بيضاء، وراحت تصرخ: (حيوانات .. متحرّشين!) ثمَّ تبعها كاروان وهو يلفُّ وسطه بمنشفة بنفسجية وقد أصابتهُ هيستيريا، وراح يتكلّم بسرعة من دون أن نتمكّن من فهم ما يريد قوله بالتحديد. اقترب منّي، وأخذ يهزُّ كتفي بقوّة وعصبية، ويطلب منّي أن أترجم له، كان يصيح بصوت عالٍ: (العاهرة هي التي تحرّشت بي .. ثمَّ راحت تصرخ في وجهي، وتقول إني أحاول اغتصابها .. قحبة كاذبة!). لم تمنحنا هيستريا كاروان وصراخ كاترينا الفرصة لكي نفهم ما حدث بالضبط. فكّرتُ أن كاروان سكران، وربّما تحرّش بها حقّاً. ذهبتْ كاترينا إلى غرفتها، وحاولنا السيطرة على كاروان، لكن عاصفة سُكره وغضبه تحوّلت إلى إعصار. سقطت المنشفة عنه، وراح يدور عارياً حول نفسه مثل ثور، ويتكلّم من دون انقطاع،

موجّهاً كلامه تارة لنا، وتارة للغرفة، حيث كاترينا: (أنتم لا تعرفون مَنْ أنا، أيُها الحثالة .. أغبياء .. متخلّفون .. هذه القحبة تظنُّ أنني أتحرَّش بكسّها المتعفّن .. هل تعرف ما الذي تركتُهُ هناك؟ .. هل شاهدتُم جمال زوجتي التي تركتُها؟ .. هل تعرفون مكانتي في مدينتي؟ .. أنتم نكرة، لا شيء .. أيَّتها العاهرة الساقطة الكاذبة .. أنا .. أنا كنتُ ضابطاً كبيراً محترماً .. أنتم .. مَنْ أنتم؟ .. وهذه القحبة البشعة ..) أسقط عمر كاروان على أرضية الصالة بعد أن حاول اللحاق بكاترينا إلى غرفتها. حاول سامي أن يُقنع كاروان بشرب الماء، لعلَّه يصحو! لحقتُ أنا بكاترينا للكلام معها. فسمعتُها تقول في هاتفها الخلوي وهي تنتحب باكية بطريقة درامية غريبة: (أنا أُحبُّكَ .. لماذا تأخَّرتَ؟ .. إنهم يغتصبونني ... إنهم يغتصبونني!) حاولتُ أن أُكلّمها، فصرخت في وجهي: (لا تقترب منّي .. خنزيرا!)

سمعنا صوت سيّارة تتوقّف خارج البيت. فُتح الباب الخارجي بعنف، ودخل إلى الصالة رجل ضخم بشَعْر طويل ولحية كثّة، يحمل معه بندقية صيد. أطلق الرجل النار، فسقط عمر. ثمَّ أطلقَ النار على كاروان. ركضتُ أنا باتّجاه الحمّام، وصَعِدَ سامي السُلّم هارباً إلى الطابق الثاني. أقفلتُ باب الحمّام من الداخل. كانت أطراف جسدي كلُّها ترتجف وأنا أصغي لخطوات الرجل وهو يصعد السُلّم الخشبي مهرولاً، ثمَّ سمعتُ صوت إطلاق رصاصتَيْن. واصلت كاترينا صراخها الهيستيري: (ما الذي تفعله؟ .. مجنون .. ما الذي تفعله؟ .. توقّف .. توقّف .. لم

نتّفق على ذلك .. أنتَ مجنون.) ثمَّ سمعتُ الرجل يصرخ بها واصفاً إيّاها بالعاهرة. لحظات، ثمَّ أخذ يرفس باب الحمَّام بقوَّة.

أعزّائي الفئران!

أرجوكم، لا تشعروا بالإهانة، إنها ليست شتيمة ولا استهزاء! إنه مجرّد وصف لحقيقة وجودكم كلاجئين في مختبرات هذا الشّمال السعيد والديمقراطي والمتمدّن. لو لم تُولَدوا بالصدفة أسفل شمس لاهبة، وتصبح لون بشراتكم مثل خبز الشعير، لكنتم الآن سعداء، تتمتّعون بمزايا البشرة النظيفة والنقية البيضاء. لكنتم قد استمعتُم بكلّ كرم الضيافة، وبكلّ سعادات أن تكون ضيفاً مُحمَّلاً بكلّ ما هو فريد وجميل ومثير للدهشة. لو كانت أسماؤكم غير الأسماء التي تشي بانتمائكم، لكان مضيفوكم بذلوا كلّ ما بوسعهم ليَنالوا إعجابكم، من خلال بيوتهم وثقافتهم ولوحاتهم وموسيقاهم. بل حتّى إن مضيفيكم سوف يرتبكون، وربّما سيشعرون بالخجل، إن قصّروا تجاهكم، أو إن بدت عاداتهم في بيوتهم ساذجة. لكنكم لستم ضيوفاً بامتيازات. أنتم مجرّد هاربين من بلدانكم، السجون. أنتم مجرمون محتملون، حتّى تثبُت براءتكم، ويمنحكم النظام صكّ الغفران. اعلموا بأن ضيافتكم إجبارية، فأنتم اقتحمتُم حدودهم المقدّسة، والقانون الدولي الذي شاركوا في صياغته، ليعبّر عن قِيَمهم الإنسانية الراقية في حماية المضطهَدِين، لا يطيقونه، ولا يطيقون أغلب القوانين الإنسانية، والتي يفاخرون بها ليل نهار. أنتم ضيوف مخيفون ومُقلِقون، وكرم الضيافة يعني أن تنصاعوا للقوانين في بيوت مضيفيكم، فلا تسامح مع أيّ خطأ أو هفوة. نحن مضيفوكم غير مجبرين على إبداء السلوك

اللائق أو محاولة استرضائكم. أنتم برابرة لاجئين، ولستم ضيوفاً نبلاء، تستوجب ضيافتكم حسن السلوك. أنتم مَنْ عليكم أن تبذلوا الجهد المضاعف من أجل أن تُرضُونا ونقبلَ بكم، ومن الجيِّد أن تُشعِرُونا بجدوى ضيافتكم. وأن تقابلوا ضيافتنا بالامتنان، وبالعمل الجادّ في كَنْس شوارعنا، وتقديم الأكل في مطاعمنا، وتنظيف زجاج شركاتنا الذكية، ومسح مؤخّرات عجائزنا، وبأن يكون موضوع ضيافتكم مادّة جيِّدة للتسلية في برامجنا الكوميديا. أنتم الهاربون، أثبِتُوا لنا بأنكم لم تجلبوا معكم قِيَم السجن والأمراض النفسية والقذارة والوحشية من بلدانكم البوليسية. وحتَّى تُثبتوا ذلك، عيشوا وموتوا في الهامش، ولا ترفعوا أصواتكم!

فئران التجارب هي نوع من الفئران التي يتمُّ تربيتها والاحتفاظ بها في المختبرات لأغراض البحث العلمي والطبِّية. قدَّمت الفئران عبر التاريخ، بتضحياتها الكبيرة، خدماتٍ جليلة للإنسان لاكتشاف الدواء والعلَّة. أكيد أنتم تعرفون سبب اختيار الفئران؟! هناك بعض التشابه بينها وبين أعضاء الإنسان. وهناك إحصائية تقول إن الفئران تساهم بـ 95 بالمية من التجارب المخبرية على الحيوانات. وهناك أسباب عديدة أخرى لأهمِّيَّة الفئران في التجارب. فهي صغيرة، وحبسها والعناية بها أمر بسيط، ويمكنها التكيُّف مع البيئات الجديدة، وهي تتكاثر بسرعة، وأيضاً هي مطيعة إلى حَدٍّ ما، لهذا يمكن للباحثين بسهولة السيطرة عليها.

أعزّائي اللاجئين! أدمغتكم تستحقُّ الدراسة، فهي

قريبة إلى حَدٍّ ما من أدمغة أصحاب المختبر البيض، فأنتم بشر، لكن بمرتبة أدنى. أنتم فرصة لا تُعوَّض للدارسة والتحليل. تتكاثرون أيضاً بسرعة، والعناية بكم بسبب ضعفكم وصِغَر حجم ثقافتكم، ممكنة إلى حَدٍّ ما، وأنتم مطيعون، فلا خيارات كثيرة لديكم. إن لم يعجبكم المختبر الأبيض، عودوا إلى الجحيم الذي أتيتم منه. ميزاتكم كلُّها كفئران بشرية، مفيدة جدّاً لأصحاب المختبر، لكي يطوِّروا الأفكار على شكل أدوية لمشكلات المجتمع المضيف. هل تتابعون وسائل الإعلام؟! حين يجلس المحلِّلون والسياسيون والأكاديميون وعلماء الاجتماع للحديث عن آثاركم الحالية والمستقبلية على مستقبل البلاد! اعلموا أنهم حين يتحدَّثون عنكم، هم، في الحقيقة، يتحدَّثون عن أنفسهم. إنهم لا يدرسون ويبحثون في حالتكم، من أجل تطوير شعارات الإنسانية أو من أجل عيونكم السود المريبة. أنتم مجرَّد فئران مختبر، تساهمون في تطوير دواء لتناقص أعداد الولادات، ولتطوير مصل (التعدُّد الثقافي) لجسد المجتمع الذي ما زال يرفض هذا المصلَّ المريب منذ قرون. كيف سيعمل هذا المصلُّ؟ وما هي آثاره الجانبية؟ أنتم تقدِّمون أدوية مهلوسة ثمينة للفنَّانين والكُتَّاب والأكاديميِّين الذين ملأوا هنا في الشَّمَال من الحديث عن الطبيعة والوحدة والكآبة والفردانية. أنتم مادَّة جديدة ومثيرة لمسرحيَّاتهم وفيديوهاتهم الفنِّيَّة وأفلامهم المغلَّفة بالسخرية والاستهزاء والاحتقار. هذا المجتمع المرفَّه الشبعان حَدَّ التخمة، يحتاج إلى قصصكم

المأساوية، ليصنع منها مرايا، ليتأمّلوا فيها صورهم التي تشعُّ نرجسية وأنانية، والمؤطّرة بمعدن ذهبي لا يصدأ (عقدة التفوُّق). أمّا السياسيون، هؤلاء المهرّجون، لا شغل لهم سوى أن يحوّلوا جلودكم وعظامكم إلى لعبة الكراسي الموسيقية. يمين يسار، يسار يمين. أخبرني بربّك! هل يوجد أكثر دناءة وخسّة وجبن في أيّ ثقافة في العالَم من أن تعتدي على ضيوفك وفي بيتك؟! أليس انتهاك حياة الناس الضعفاء وانعدام التعاطف والقسوة المعنوية والجسدية هو اغتصاب؟! هل سمعتم بما يقوله فيلسوف شَمَالي يقضي حياته في عزلة في غابة، ويعيش على صيد الأسماك، عن احتقار التضامن الإنساني (ما الذي ينبغي فعله عندما تنقلب سفينة تحمل مائة راكب، ولا يوجد على متنها سوى قارب نجاة واحد، يكفي عشرة أشخاص فقط؟ إذا كان القارب مليئاً، أعداء الحياة هم الذين يحاولون إنقاذ رُكّاب أكثر فيغرق القارب، إلّا أن الذين يُحبُّون الحياة ويحترمونها يُمسكون بالفأس، ويقطعون أيدي الذين يتشبّثون بجانبَي القارب).

كانت رائحة الدولمة المحروقة والسمك المتفحّم تخنق أجواء البيت. كنتُ أحمل البندقية في يدي، وأدور حول كاترينا التي كانت تجلس عارية على رأس المائدة، وهي ملطّخة بالدماء وترتعش. توسّلت إليّ من جديد بأن أتركها ترتدي ملابسها، فالبرد كان يعذّبها! أخبرتُها إن فتحت فمها القذر مرّة أخرى سأنسف رأسها (تتكلّمين فقط حين أطلب منكِ ذلك!). ملأتُ صحناً بالدولمة والسمك المتفحّمَين، ووضعتُهما أمامها. أخذتُ من

الثلاجة زجاجة نبيذ أبيض، وجلستُ إلى المائدة، ورحتُ أكرع من فُوَّهَة الزجاجة. أمرتُها بأن تبدأ طعامها، ورحتُ أشرح لها أكلتنا: من المفروض أننا كنَّا سنعمل الدولمة من ورق العنب أو السلق، لكنها غير متوفِّرة في مدينتكم الخرائية سولولاند، لهذا استخدمنا أوراق الملفوف. إنها أكلة مشهورة ومحبَّبة في بلادنا، ويحتاج تحضيرها إلى وقت وصبر. وكلُّ مدينة في البلاد تتفنَّن بطريقة طبخها، وتضع عليها لمساتها الخاصَّة. مكوِّنات الدولمة: باذنجان أسود. فلفل بألوان مختلفة. طماطم. كمِّيَّة كافية من الأرز للحشوة. بصل. بقدونس. نعناع. ملح وفلفل أسود. بهارات. زيت طماطم. صلصة طماطم. أمَّا طريقة التَحضير، يُخلَط البصل مع التوابل، ثمَّ يُضاف البقدونس والأرز والطماطم والصلصة والزيت والنعناع إلى الخليط. يُقوَّر الباذنجان، ويُنظَّف الفلفل من البذور، وتُقوَّر الطماطم، وتُتبَّل الخضراوات من الداخل بالملح والفلفل وتُقلَب على وجهها لنحو نصف ساعة. يُغسَل الباذنجان والفلفل والطماطم، ويُحشَى بخليط الحشوة. يُضاف إليه الصَوص المُتبقِّي من الخلطة حتَّى يصل إلى نصف القِدر، ويضاف زيت، ويُرفَع على النار العالية حتَّى يغلي، ثمَّ تُهدَّأ النار، ليُطبَخ حتَّى ينضج.

انتبهتُ أنها لم تأكل شيئاً من السمك المتفحِّم، فصرختُ في وجهها، وأمرتُها أن تُنهيَ الصحن الذي أمامها. نهضتُ وجلبتُ هديتنا: (حتَّى إنكِ لم تفتحي الهدية، أيَّتها التافهة!!) قلتُ، وأنا أزيل غلاف الهدية. طلبتُ منها أن تنظر للَّوحة، وأخبرتُها أنها قطعة من خشب شجرة

الصَّنَوْبَر من الغابة التي تحيط بمخيَّم اللجوء. جلب سامي جذع الشجرة من الغابة بنفسه، وتكفَّل كاروان بأخذ الجذع لمعمل النجارة، لكي يصقلوا الخشب، أمَّا عمر، فهو مَنْ خطَّ بيده مقولة الرومي، وأنا ساعدتُ في ترجمة المقولة. كان مكتوباً على اللوح الخشبي:

بالأمس كنتُ ذكياً، فأردتُ أن أُغيِّر العالَم .. اليوم أنا حكيم، ولذلك سأُغيِّر نفسي.

سألتُها إن كانت تعجبها فكرة الرومي. قالت وهي ترتعش من شدَّة البرد والخوف: (لا أعرف. أرجوكَ!). قلتُ: (ما الذي تعرفينه أنتِ، أيَّتها العنصرية، غير الكراهية؟! قولي شيئاً!). ردَّت متلعثمة: (لا أدري! أرجوكَ، دعني أرتدي ملابسي .. دعنا نتَّصل بالشرطة!)

لففتُ سيجارة، ورحتُ أُدخِّن. وبعد أن اعترفتْ لي بتفاصيل مخطَّطها القذر مع حبيبها النازي، كانت في داخلي رغبة عارمة لمعرفة كلِّ شيء عن حياتها. كنتُ أريد النفاذ إلى داخل عقلها، كنتُ أشعر في تلك اللحظات بأنني أريد أن أكونها هي نفسها! طبيبة تخدير بيضاء، تجلس عارية أمام رجل شرقي غريب، يحمل بندقية. طلبتُ منها أن تحكيَ لي عن حياتها وطفولتها! كرَّرتْ كلامها: (أرجوكَ، دعني أرتدي ملابسي، وسأفعل ما تريد!). ضربتُ الطاولة بقبضة يدي بقوَّة، سحبتُ شرشف مائدة الطعام، فتطايرت الأواني ومزهرية الورود. رميتُ الشرشف عليها، فَلَفَّتْ نفسها به. سألتُ إن كان بإمكانها شرب كأس من النبيذ. لبَّيتُ رغبتها، ثمَّ بدأتُ بالكلام بعد

أن أفرغتِ الكأسَ في جوفها:

أبي كان طبيباً، يعمل في منظَّمة الصحَّة العالَمية، وأمِّي كانت محاسبة، تعمل في شركة إلكترونيات. لديَّ أُخت مصابة بالفِصَام. حدث ذلك حين كانت في سنِّ التاسعة عشرة. كانت هناك شركة روسية تبحث عن موديلات شابَّة من دول الشَّمَال. وكانت أُختي جميلة، وكان كلُّ مَنْ يلتقيها ينبهر بجمالها وقوامها، وكانت هي تريد أن تصبح ممثِّلة مشهورة. سافرت أُختي إلى روسيا للالتحاق بالشركة، وكانت أُمِّي مُعارِضة بشدَّة للأمر. أبي كان يسافر كثيراً، وكان غارقاً في عمله، كان يدير فريقاً تابعاً لمنظَّمة الصحَّة العالَمية في شرق إفريقيا. اتَّضح فيما بعد أن الشركة الروسية وَهمية، وكانت تصطاد الشابَّات للعمل في الدعارة. حجزوا أُختي مع فتيات من بلدان مختلفة في شُقَّة، وكانوا يضعون لهنَّ المخدِّرات في الشراب. كانوا يأخذوهنَّ لِلِقاء رجال أثرياء، يقيمون في فنادق فاخرة، بحجَّة أنهم مديرو شركات أزياء عالَمية. تمكَّنت أُختي أخيراً من الهرب. عادت إلى سولولاند، لكنها لم ترجع أبداً إلى طبيعتها من جديد. تدهورت حالتها النَّفْسية، وشخَّص طبيبها لاحقاً إصابتها بالفِصَام. أمَّا أنا، فكنتُ البنت التي لا تلفتُ الانتباه. المطيعة لأُمِّي، والخائفة من كلِّ شيء. وكان الجميع يظنُّ بأنني أغار من أُختي. في أثناء دراستي، أُصيب أبي بمرض في المعدة في أثناء عمله في إفريقيا، وتدهورت حالته بسرعة، ومات. تحسَّنت أمور أُختي إلى حَدٍّ ما، وذهبت للعمل في العاصمة كبائعة للملابس النسائية في أحد المحلَّات

الشهيرة. تزوَّجتُ أنا مرَّتَين، وانفصلتُ. لديَّ بنت تعيش في أمريكا من زواجي الثاني، وعلاقتنا سيِّئة، ونادراً ما نتواصل.

شعرتُ بأن فمها صار جافّاً، فجلبتُ لها الماء.

(حدث شيء لم أخبر به أحداً من قبل حين كنتُ في سنِّ الخامسة عشرة) قالت، ثمَّ أطبقَ الصمت لنصف دقيقة، إلى أن عاودت الكلام: (كان هناك رجل يربِّي الخيول في سولولاند، وكنتُ أُحبُّ، في بعض الأحيان، الاقتراب من سياج مزرعته لمراقبة الخيول. انتبه لي، ودعاني إلى المزرعة. أدخَلَني إلى الإصطبل، وراح يحدِّثني عن خيوله بالتفصيل، ثمَّ اغتصبَني ....)

(ماذا حدث؟ أريد تفاصيل؟!) قلتُها بخبث وحقد.

(أرجوكَ!) قالت، ثمَّ أضافت والدموع في عينَيْها: (بعد أن فضَّ عذريَّتي، ضاجَعَني من الخلف .. هذا كلُّ شيء، أرجوكَ .. أتوسَّل إليكَ .. كفى .. أرجوكَ!)

أخبرتُها بأنه عليَّ أن أضع اللمسات الأخيرة على مبادرة العشاء. قطعتُ واير سيَّار كهربائي، وربطت يدَيْها، وبدأتُ بتنظيف البيت وترتيبه. أنزلتُ سامي من الطابق الثاني، كان مصاباً برصاصتَين في صدره. سحبتُهُ من قدمَيْه، وأجلستُهُ على الكنبة. ثمَّ وضعتُ جثَّة عمر وكاروان أيضاً في وضعية الجلوس جوار سامي. لا أدري لمَ فعلتُ ذلك! سحبتُ جثَّة حبيب كاترينا من الحمَّام، ومدَّدتُهُ قرب الكنبة تحت أقدام جثث الضيوف. مرَّرتُ المكنسة الكهربائية على أرضية غرفة النوم وصالة الضيوف

والمطبخ. غسلتُ الصحون والأواني، ومسحتُ الأرضية. نظَّفتُ الحمَّام، وجمعتُ الملابس القذرة، ووضعتُها في غسَّالة الملابس، وقمتُ بتشغيلها. فتحتُ الشبابيك للتهوية، وعدَّلتُ بعض قِطَع الأثاث. ثمَّ رميتُ القمامة، وجمعتُ زجاجات الكحول كلَّها وعلب البيرة الفارغة في كيس بلاستيكي كبير. استغرق تنظيف البيت أكثر من ساعتَيْن. طوال فترة التنظيف، كنتُ مستغرقاً في التفكير في حياتي. الماضي والشَّمَال وسذاجتي! ألم أكن هارباً من كوابيسي وذكرياتي، ومن مواجهة صدماتي النَّفسية، وأنا أحاول أن أنغمس في حياة الآخرين بحجَّة مَدِّ يد العون؟! كان ذهني ينشط بسرعة، وأخذتُ أشعر بصداع رهيب. جلبتُ هاتفي، وأعدتُ تشغيله. جلستُ قَبَالَة كاترينا، ورحتُ أتصفَّح الفيسبوك. كتبتُ بوست: (أريد أن أعود إلى البيت، أرجوكم!!). فتحتُ قيد كاترينا، وأخذتُها بجولة في البيت. تضاعف رعبها حين شاهدت نظافة البيت. أجزم أنها لم تره بمثل هذا الشكل في حياتها. كان مرتَّباً ونظيفاً وكأنه فندق 5 نجوم. سحبتُ الشرشف الذي تلفُّ نفسها به بعدوانية، وأخذتُها عارية إلى الساونا.

قلتُ: (هذه هي ساونتكَ التي بدأتِ مسرحيَّتكِ القذرة منها.)

(أرجوكَ، لا تفعل ذلكَ .. أرجوكَ!).

سألتُها: (ماذا تظنِّين أنني سأفعل؟ أغتصبكِ، ثمَّ أقتلكِ؟!).

كان ضوء الصباح قد طلع وأنا أقود سيّارتي في الغابة. شغّلتُ في هاتفي فيديو وثائقي عن الجراد، ورحتُ أبكي بحُرقة. ثمّ أوقفتُ السيّارة على جانب الطريق، واتّصلت بأحد أصدقاء طفولتي، والذي لم أكن أتواصل معه منذ غادرتُ البلاد. استغرب الصديق من الاتّصال، وكان مرتبكاً، لكنه سرعان ما استعاد روح علاقتنا، ورحنا نتحدّث وكأننا لم نفترق من قبل. تحدّثنا عن قريتنا، وعن ذكريات الطفولة. أيّامها كنّا ندخل في منافسة أنا وإيّاه في البحث عن أغرب أشكال الحشرات والعقارب والأفاعي في القرية. ذكّرني الصديق بأنني كنتُ دائم التفكير في سؤال لعبة تبادُل الأحجام بين الحيوانات والحشرات والبشر. وذكّرني بنصّ قصير، كتبتُهُ أيّام الإعدادية عن الموضوع، وقال إنه كان نصّاً غريباً حينها، وإنه ما زال يحفظه:

ذات ليلة مجدبة من ليالي حياتنا المتلاشية، قرّر فأر من الصنف السوداوي الشائع أن يضع حدّاً لحياة الذعر والذلّ هذه، ويُنهي قَدَرَ الضعف والعجز الذي سُجن فيه من دون ذنب. كانت الخطوة المصيرية الأولى هي تحدّي الرَّبّ، ومخالفة تعاليمه التي تنصُّ على أن يتحدّث كلُّ كائن بلغته. وفأرنا اختار التحدُّث بلغة البشر عالِمَاً بأنه يتحمّل وحده عواقب مثل هذه المغامرة المحرَّمة. مفهوم أنها لحظة مثيرة، شبيهة بلحظات الذروة الجنسية. ففيها يختلط سحر مذاق الواقع بالرغبة في الاختفاء.

في ساعة مبكّرة من صباح ذاك الشتاء، خرج الفأر من

جُحْره في غرفة المطبخ دون مبالاة، مثل سكّير يبحث عن علبة كبريت. وكانت العائلة تجلس إلى مائدة الفطور بكسل وأمان ...

قال الفأر: صباح الخير!

عندها فقط اختلفت قواعد لعبة الخوف، وصار الفأر بحجم الديناصور ...

زارني رامان في السجن. راح يتكلّم عن طيبتي وحظّي السيّئ. وكيف أن مبادرة (الخير!) التي حاولتُ القيام بها انتهت بكارثة! كان واضحاً أن هناك ألف سؤال وسؤال يدور في ذهنه عن كلّ ما حدث في مبادرة العشاء الدموي. أخبرتُهُ أنه صديقي الوحيد الذي أثق به، ويمكنني أن أحدّثه عن أيّ شيء، وبصراحة تامّة. لم يتردّد رامان، فأخرج السؤال الذي يحيّره: (هل اغتصبتَها فعلاً؟!)

(لا!) قلتُ.

كاد رامان أن يقفز من الكرسي: (خره .. كنتُ متأكّداً أنكَ لم تفعل ذلك .. لكن، لماذا قلتَ إنكَ اغتصبتَها في التحقيق؟!)

فحكيتُ له:

اسمعْ، رامان، كانت الدعوة فخّاً، نصبتْهُ كاترينا برفقة عشيقها النازي. كان كلُّ شيء مخطّطاً له منذ البداية، لكنْ، لم يكن الاتّفاق، حسب ما أكّدتْهُ لي كاترينا، هو قتل الضيوف بدم بارد. كانت كاترينا تعاني من الكآبة منذ فترة طويلة. أخذتْ إجازة من العمل بعد تدهور حالتها النّفسية. كان سلوك حبيبها النازي العدائي والمتسلّط، يُضاعِف من تمزُّقها وضياعها في دوّامة الكآبة. كان يهجرها ويهينها ويعتدي عليها بالضرب في كثير من المرّات. قالت لي إنه مدمن على الكوكايين. سمع حبيب كاترينا بمبادرة العشاء التي يعمل عليها ماركو. اتّصل بكاترينا، ووضع شرطاً لعودته اليها. طلب منها أن تتّصل

بماركو، وتدعو بعض اللاجئين إلى بيتها. أخبرها أنه لا يريد سوى تخويف اللاجئين، انتقاماً للفتاة التي اغتصبوها في الغابة. وضع هو الخطّة. طلب منها أن تدّعي بأنها تعاني من الحساسية من ذبذبات الهواتف، تجمع هواتفنا الخلوية، وتخفيها في غرفتها، لكيلا نتمكّن من الاتّصال وطلب المساعدة. واقترح أن ترتدي ثوباً مثيراً، وقال لها بأنه متأكّد من أن اللاجئين المتخلّفين سيتحرّشون بها. تتّصل كاترينا به، فيأتي رجل البيت، وينقذ حبيبته من مخالب ضيوفها المتحرّشين. في غمرة سُكر كاترينا وحماسها وقلقها الزائد، تمادت هي بالفكرة، واختلقت فكرة الساونا والتعرّي والتحرُّش. لا أدري إن كان عشيقها قد خطّط منذ البداية لإطلاق الرصاص. تقول الشرطة إنه كان تحت تأثير المخدّرات حين ارتكب جريمته، ربّما حين شاهد كاروان عارياً، ضاعفت المخدّرات من عدائيّته وهلوسة مخيّلته المريضة! لا أدري .. ما زلتُ أفكّر بما حدث حتّى اليوم، أستعيد التفاصيل، وأقلّب في صور تلك اللحظات المرعبة.

عندما كنتُ أختبئ في الحمّام، كان ذهني يعمل بنشاط كبير، وشعرتُ بقوّة هائلة تسري في داخلي، مزيج من الغضب والخوف والحقد. بحثتُ في الحمّام بسرعة عن أيّ شيء يساعدني للدفاع عن نفسي. وحين عثرتُ على مقصّ كبير، ردّدتُ عشرات المرّات مع نفسي: (سأقتله، سأقتله، سأقتله). أمسكتُ بالمقصّ بقبضة قوية، ووقفتُ فوق مَقعَد المرحاض، لأكون بمستوى طول الرجل، متأهّباً للانقضاض عليه دفاعاً عن حياتي. وما إن خلع

قفل الباب واقتحم الحمّام، حتّى قفزتُ عليه، ووجّهتُ له ضربتين متتاليتين في وجهه. الأولى جرحت أنفه، والثانية غُرزت عميقاً في عينه اليسرى. تزحلق، وسقط على أرضية الحمّام. أخذتُ البندقية، وأطلقتُ رصاصة على رأسه.

لكن، لماذا قلتُ إنك اغتصبتَ كاترينا؟!

حين كانت الشرطة تحقّق معي وتهينني طوال الوقت، قالوا لي ان كاترينا أخبرتهم بأنني اغتصبتها في الساونا. لم أصدّقهم أوّل الأمر، فأروني فيديو تتحدّث فيه عن تفاصيل اغتصابها في الساونا. شعرتُ بغضب شديد من كذبتها! لم تراودني حينها أبداً فكرة اغتصابها، خطرت في ذهني لوهلة فكرة إطلاق النار عليها في الساونا. لكنني لم أكن قادراً على فعل ذلك. تركتُها تنتحب في الساونا. رميتُ البندقية في فناء البيت. ولا أعرف كيف قدتُ سيارتي حتّى وصلتُ إلى استوديو لاورا.

خره ... يا لله ...أنتَ مجنون حقّاً.. لمَ تقضي على حياتك، صديقي؟!

عزيزي رامان، لو كانت الشرطة تبحث حقّاً عن الحقيقة، لتمكّنت من معرفتها. هؤلاء التعساء الذين يريدون أن يجعلوا منّا كابوسهم الأوّل والأخير، دعنا نغذّي مخيّلاتهم المريضة وعنصريّتهم بالمزيد من الكوابيس، حتّى يتقيّؤوا من أعماقهم أنانيتهم كلّها وغرور عقد التفوّق التي تعشّش في كهوف وعيهم منذ قرون. دَعِ الأقنعة تسقط، ودعهم يخوضون في وحل احتقار الآخرين،

ويتسمَّمون بزُهاب الأجانب حتَّى النَّفَس الأخير!

تغيَّرتَ كثيراً! كنتَ تلوم الآخرين على أحكامهم السطحية العامَّة! ذكَّرتَني أنتَ نفسكَ أكثر من مرَّة بأن الكراهية في الغالب هي مبنية على سوء فهم، وفي كثير من الحالات هي جهل مقزِّز.

عزيزي رامان. هؤلاء الشَّمَاليُّون وأصحاب بشرة التفوُّق الأبيض يريدون أن يشبهوا حالنا نحن اللاجئين والمهاجرين، كالجراد. يريدون أن يقولوا إنهم يخوضون حرباً ضدَّ تدفُّق أسراب الجراد من بقاع العالَم المتخلِّف، وهو يهدِّد محاصيل رفاهيَتهم المقدَّسة. في الحقيقة، هؤلاء أبناء الرفاهية والاستهلاك الأناني هم الجراد الحقيقي والأخطر على هذا الكوكب. إنهم أخطر جراد في تاريخ البشرية، وليس منذ اليوم! لن تكفي تِقْنِيَّاتهم ومصانعهم وأنانيَّتهم وهَوَسهم، موارد هذه الأرض المنهَكَة من حمَّى التصنيع والاستهلاك الذي يمارسونه منذ قرون. لن يكفي جوع هذا الجراد الأبيض المتفوِّق، ولا عشرة كواكب أخرى شبيهة بالأرض.

الزمن سيشفي جروحكَ .. أنتَ بحاجة إلى جلسات علاج، هل بدأتَها؟ أنا متأكِّد أنكَ سترجع مثل ما أعرفكَ، صديقي .. إنساناً طيِّباً وذكياً، وقلبكَ مليء بالمحبَّة.

الهجرة المتواصلة هي الحلُّ!

ماذا تقصد؟

انسَ الموضوع! أخبرني عن مشاريعكَ؟

آه، أوكي! أخبرتك أنني تركت العمل في مطعم السمك، لديّ الآن تاكسي، أعمل عليها في أثناء الليل. أخطّط لأخذ إجازة طويلة من العمل، والقيام بمغامرة كبيرة، رحلة مشي تاريخية! أريد أن أمشي من إفريقيا إلى الشرق الأوسط، ثمّ عبر أوربا الشرقية، حتّى شمالنا السعيد هذا.

رائع، إنه مشروع كبير وطموح، أكيد ستكون رحلة ممتعة ومفيدة.

ماذا عنك أنت؟ كيف تقضي أوقاتك؟

أغلب الوقت في القراءة والكتابة.

وماذا تقرأ؟

عن النمل والنحل والعقارب والعناكب. أعرفك جيّداً ستسأل، وماذا أكتب؟ مجرّد خربشات، مشاهد متفرّقة، أفكار وخواطر، ومرّات قصائد قصيرة.

عمّ الصمت، وحبسنا الكلام في داخلنا. أخرج رامان هاتفه، لينظر إلى الوقت.

لمَ لا تقرأ لي شيئاً ممّا كتبتهُ؟

حدّقتُ في عينيه، وقرأتُ:

لاجئ في الجنّة البيضاء!

تهرب من الموت.

يضربونك في الحدود.

يهينونك في الصحف العنصرية.

يحلّلون جثّة طفلك في التلفزيون.

يجتمعون ويناقشون ماضيك ومستقبلك.

يرسمون غَرَقَك في لوحاتهم.

يضعونك في متاحفهم، ويصفّقون.

يقرّرون أن يتوقّفوا عن ضربك، ويشكّلون قوّة عسكرية ضدّك.

الأكاديميون يحصلون على دعم مالي جديد لدراسة روحك وجسدك.

السياسيون يشربون النبيذ الأحمر بعد اجتماع طارئ عن مصير حياتك.

يدرسون التاريخ بحثاً عن حلّ لابنتك التي تتجمّد في برد الغابة.

النازيون الجدد يشتمونك ويحرقون بيتك.

الفاشيون الجدد يتسلّقون إلى البرلمانات على أكتافك.

أنتَ كابوس القدامى والجدد.

يذرفون دموع التماسيح على وجعك.

يخرجون ضدّك في مظاهرة، ويشيّدون الجدران.

ناشطون خضر يُعلّقون صورك في الشوارع.

آخرون يجلسون على الكنبة، يعلّقون بملل على صورتك في الفيس بوك، وينامون.

ينزعون إنسانيَّتكَ بمناقشاتهم الذكية والحادَّة مثل السكاكين.

يكتبونكَ اليوم وبمِمْحَاة الأنانية يُخفونكَ في صباح اليوم التالي.

ينتظرون أن يعثروا على إنسانيَّتهم من خلال مأساتكَ.

يُدخِلُونكَ جنَّتهم، ويجلدونكَ ليل نهار بسوط ذُعرهم من عينَيْكَ اللتَيْن تشعَّان خوفاً وأملاً.

الماضي ينام ويصحو في داخلكَ.

الحاضر يحاصركَ.

تُنجب أطفالاً لجنَّتهم، وتشيخ.

تموت.